تشومسكي

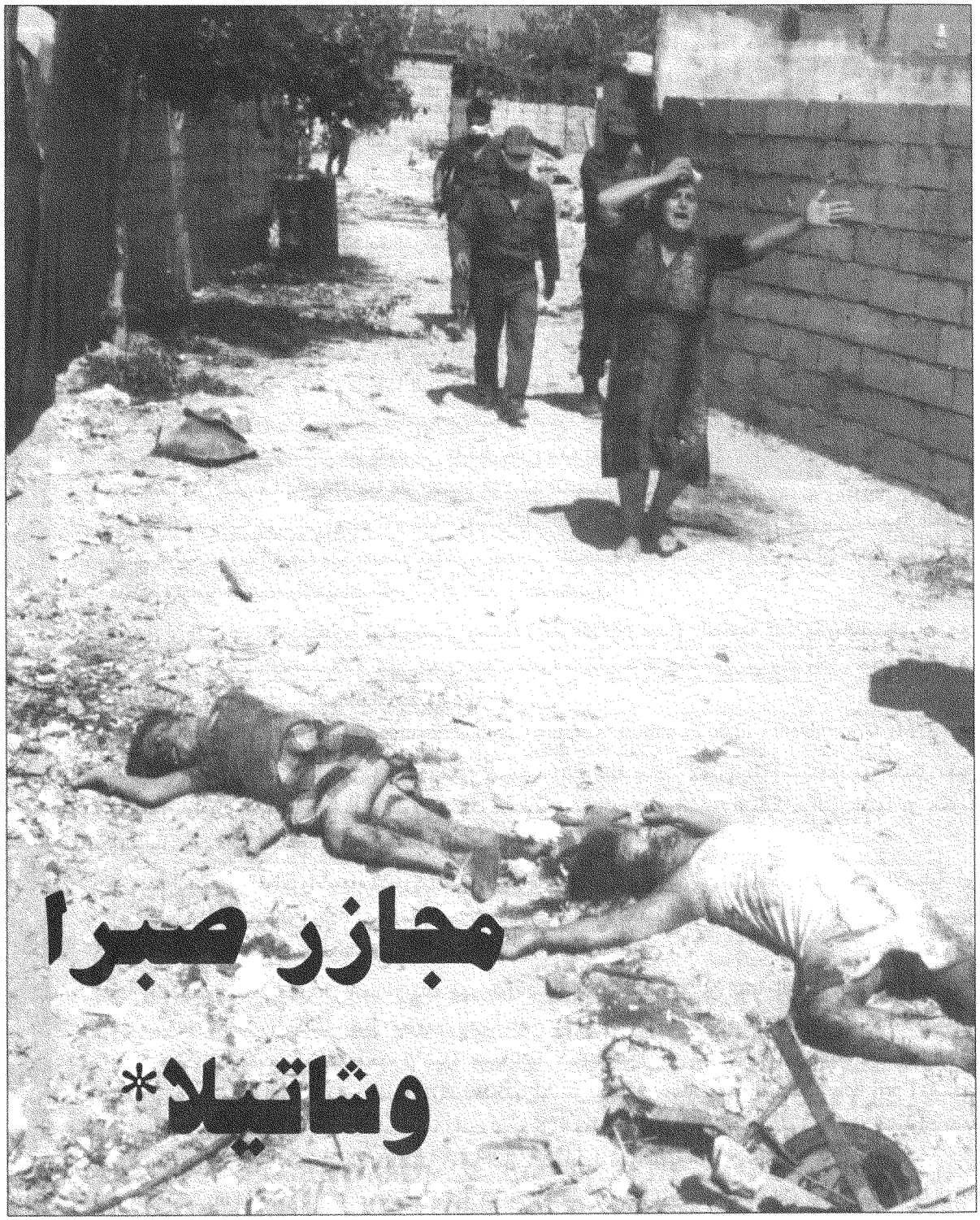

مجازر صبرا وشاتيلا*

ترجمة: أيمن حنا حدّاد راجع الترجمة وقدّم لها: سماح ادريس

* - صفحات مطوّلة من الفصل السادس من كتاب تشومسكي: **المثلث الرهيب: الولايات المتحدة واسرائيل والفلسطينيون** الصادر عام ١٩٨٤

تقديم

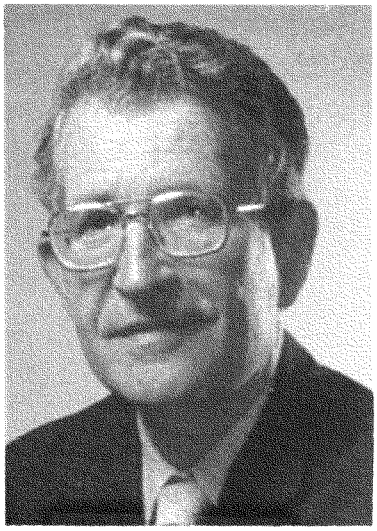

لا يحتاج تذكُّر صبرا وشاتيلا إلى مناسبةٍ بعينها. فالمخيّمان اللّذان نزفا بين ١٦ و ١٨ أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٨٢ هما صورة عن النزيف المتواصل الذي يعانيه الشعبُ الفلسطيني في أكثر بلاد الشتات، منذ خمسين عاماً على اقتلاعه من فلسطين. ومع ذلك ننشر هذا النصّ المميّز لنوم تشومسكي، على الرغم من انقضاء أكثر من ثلاثة عشر عاماً على كتابته، وذلك لإعادة التركيز على أمور نراها في غاية الأهميّة، بل نراها مصيريةً لحياة القضية العربية وللسلّم الحقيقي ولـ «صحّةِ» هذا المخلوق الذي تتقاذفه تياراتُ التأصيل والتغريب والتسليف والتفكيك ـ عنيتُ: «المثقفَ العربي».

فأما النقطة الأولى، والأهم في هذا البحث المشوِّق، فهي مسؤولية الولايات المتحدة الأميركية مسؤوليةً مباشرة عن مجازر صبرا وشاتيلا في أيلول ١٩٨٢. وتشومسكي هنا يعود إلى ما قبل وقوع هذه المجازر، فيكشف (لمن كان ما يزال مراهناً على حياد الولايات المتحدة) أنّ الإدارة الأميركية هي التي أعطتِ الاجتياحَ الإسرائيليَّ للبنان «ضوءاً أخضَرَ»، وهي التي برّرتْ دخولَ القوات الإسرائيلية بيروتَ الغربية بأنّه «محدَّد ووقائي» (بحسب المتحدث باسم البيت الأبيض) مع أن هذا الدخول خرقٌ فاضحٌ لاتفاقية «حبيب» وللتعهّدات الأميركية لِلُّبنانيين والفلسطينيين.

بل إنّ الولايات المتحدة غدرتْ (وتشومسكي يستخدم لفظَ perfidy عمداً) بالحكومة اللبنانية وبالفلسطينيين، حين أعطتِ الطرفيْن ضماناتٍ بسلامة الفلسطينيين بعد مغادرة مقاتلي منظمة التحرير بيروتَ. وكتب حبيب، بالحرف الواحد، لرئيس الوزراء اللبناني آنذاك شفيق الوزان:

"My Government will do its utmost to ensure that those assurances are scrupulously observed".

أي: «إنّ حكومتي ستَبْذل قصارى جهدها لكي تضمن أنّ تلك التطمينات [الإسرائيلية] سيُتَقَيَّد بها بشكلٍ دقيقٍ [وجادّ]». وتقول «الاتفاقية» أيضاً إنّ الولايات المتحدة تقدِّم ضماناتها «على أساس التأكيدات التي تلقّتها من حكومة إسرائيل ومن قادة جماعات لبنانية محدَّدة لها اتّصالٌ بها».

لقد انسحبت القواتُ «الأمنية» الأميركية من محيط المخيمين قبل أسبوعين من انتهاء فترة تفويضها الأصلية. أي أنها أشرفتْ على مغادرة مقاتلي منظمة التحرير، لكنها انسحبتْ بعد ذلك قبل أن توفّر الحماية للسكّان المدنيين، فأُجبرت القواتُ الإيطالية والفرنسية بدورها على الانسحاب، فوقعت المجزرة.

ولكنّ تشومسكي يذهب إلى أبعد من ذلك. فهو يقول، مع الكسندر كوكبورن، إنّ القتلة اللبنانيين لم يكونوا مدعومين من إسرائيل فحسب، بل كانوا أيضاً «معروفين معرفةً تامةً» من قبل المخابرات الأميركية (والإسرائيلية) وكانوا «مُجازين من الولايات المتحدة» بسبب ازدراء هذه الأخيرة لضماناتها. كما يذهب إلى أنّ إسرائيل لا تلتزم ببيانات أميركا العلنيّة حتى لو شجبتْ إسرائيلَ، ما دامت أميركا تؤكّد لحليفتها الاستراتيجية في مجالسهما الخاصة ("privately") تأييدَها لمواصلة إسرائيل «عملَها» كيفما شاءت، وما دامت تَدْعم كلَّ الخطوات الإسرائيلية حتى لو لم تحظَ هذه الخطواتُ بدعم دولي. وينقل تشومسكي عن ميرون بنفينِستي، وهو النائب السابق لرئيس بلدية القدس، ما يلي:

> ما هو جيشنا إنْ لم يكن نتاجَ المساعدات الأميركية؟ ألم يعلن [الرئيسُ الأميركي] ريغان أنّ المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية «ليست مخالفة للقانون» not illegal؟ ألَمْ يُجِز الكسندر هايغ المرحلةَ الأولى من اجتياح إسرائيل للبنان؟ إنّ كل ما حدث في إسرائيل حتى الآن قد حَمَلَ ختمَ الموافقة الأميركيّ او على الأقل احتملتْهُ حكوماتكم [الأميركية المتعاقبة]. وإذا كان الماردُ قد خرج من القمقم، فإنّ واشنطن هي التي ساعدته على إطلاقه!

ولئن عجزتِ الولاياتُ المتحدة عن أن تضمن حياةَ أبرياء عزّلٍ في مخيمات مدمّرة، فهل ستنجح اليوم في أن تضمن عمليةَ سلامٍ عادلةً في الشرق الأوسط؟ وهل ستكون راعيةً محايدةً بين العرب وإسرائيل، وهي التي أعطتِ الضوءَ

الأخضرَ للاجتياح الإسرائيلي للبنان ولبيروت، بل ورفضتْ قرار الهيئة العامة للأمم المتحدة باستنكارِ المذبحة، وكانت وحدَها (إلى جانب إسرائيل طبعاً!) في رفضها هذا؟

*

وأما النقطة الثانية التي ينبغي علينا جميعاً أن نسترشد بها فهي أنْ لا فرق على الإطلاق بين حزبي الليكود والعمل في عدائهما لإنسانيتنا الفلسطينية والعربية. ينقل تشومسكي مقطعاً من خطاب شيمون بيريز أمام الكنسيت عقب حصول المجزرة، وفيه يبرِّئ الجيشَ الإسرائيليَّ من مسؤوليّته عنها، ويوحي بأن «الخطأ» هو من نصيب قيادة الليكود وحدها. أيْ أنّ حزب العمل «يجيِّر» هذه المأساةَ الإنسانيةَ العظيمةَ نفسَها لـ «تصفية حساباته» مع الليكود، بدلاً من أن يطرح موقفاً معادياً للسياسة العسكرية الإسرائيلية برمّتها. فلعلّ استنتاجاتِ تشومسكي في هذا الصدد أن تقضّ مضجعَ أولئك الساسة العرب الذين يترحّمون على أيام بيريز، و«يناضلون» من أجل إعادته إلى سدّة الحكم خَلَفاً لنتنياهو... علماً أن «حزب العمل» التزم الصمت حيال كل المذابح السابقة، وهو الذي نفَّذَ مذبحة قانا بعد ذلك بأعوام!

*

والنقطة الثالثة هي أنّ نشر بحث تشومسكي الآن يأمل في أن يُعيد إلى الأذهان وضعَ المخيمات الفلسطينية ـ وبينها المخيمان «الشهيدان الحيَّان» صبرا وشاتيلا ـ في لبنان اليوم. فلبنان يلتزم بـ «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» وبالاتفاقات الدولية الخاصة باللاجئين، ولكنه لا يحترم الحقوق الإنسانية للفلسطينيين في لبنان.

فهل تعلمون أنّ الأمن العام اللبناني يمنع زيادةَ مساحةِ المخيمات، ويمنع زيادةَ طبقات فوق الطبقات الأصلية في المبنى، ويشترط أن يكون البناءُ من الحجر والصفيح فقط؟ وقد أدّى ذلك إلى مشكلة سكانية كبيرة وإلى تبعثر العائلة الفلسطينية الواحدة.

كما أنّ اللاجئين الفلسطينيين في لبنان لا يتمتعون بحق العمل، باستثناء نسبةٍ ضئيلة قدّرها المحامي فادي مغيزل بـ ١٤ . ٠٪ فقط من اليد العاملة الفلسطينية. وهناك كثير من حملة الشهادات العليا (ماجيستير وما فوق في الأدب والتاريخ...) يضطرون اليوم إلى بيع الخضار أو قيادة سيارات الأجرة، لأنهم ممنوعون من مزاولة ٧٣ مهنةً في لبنان!

زدْ على ذلك أنّ اللاجئين الفلسطينيين لا يتمتعون بحق الحصول على التقديمات الاجتماعية وفقَ ما يفرضه القانونُ الدولي. فإذا أضفنا إلى هذا شحّةَ الدعم الصحيّ الذي توفّره «الاونروا» منذ سنة ١٩٩١، وانخفاضَ مستويات مدارس الأونروا، لأدركنا حجم المخاطر التي تهدّد المخيمات الفلسطينية والشعب الفلسطيني في لبنان بأكمله.

ولم يعد خافياً الحديثُ اليوم عن مخططات لجرف أجزاء من المخيمات في المخططات الإعمارية الجديدة. ويُحكى عن جرف حوالي ٨٠٠ بيت من مخيم برج البراجنة ـ مخيم الصمود والرفض الأوّل في لبنان، ربّما ـ في مشروع «أليسار» العتيد. وكأنّ البلدوزر الفاشي، الذي محا عنه «ايتان» علامات الجيش الإسرائيلي حين قدّمه للقتلة، يواصل اليوم عمله ولكن لغايات إعماريّة!

إنّ رفض التوطين حقٌّ، وواجبٌ على كل لبناني وفلسطيني؛ فلا وطن للفلسطينيين إلاّ فلسطين. ولكنّ هذا شيء، وقهر الشعب الفلسطيني شيء آخر. والسبيل الوحيد لتحقيق العودة إلى فلسطين هو تقديم الحدّ الأدنى من مستلزمات الصمود لحين العودة. وأما إذلال المخيمات، منجمِ المناضلين والثوّار والشهداء، فلن يؤدّي إلاّ إلى نشأة بذورِ حربٍ جديدةٍ كنّا قد أمّلنا زوالَها إلى غير رجعة!

*

والنقطة الرابعة تتعلق بالملفّ الأساسي في عدد الآداب هذا، عنيتُ: ملف «نهاية المثقف». ففي الوقت الذي يَنعى فيه البعضُ المثقفَ الملتزمَ التقدميَّ، ينبري تشومسكي مثالاً صارخاً على الالتزام بقضايا العدل والحريّة، ومثالاً على أنّ القارئ ما يزال يتطلّع إلى الكلمة الصادقة المكافحة (بدليل مواصلة القرّاء، إلى اليوم، الإقبال على مؤلفات تشومسكي وسعيد وغيرهما). ترى، من يقرأ فوكوياما اليوم؟ ومن سيقرأه في المستقبل؟ وأين موقع المثقف «التقني» و«التفكيكي» من مجازر العصر ومآسيه؟

سماح إدريس

فصل من التاريخ اليهودي

كتب س.م. دوبناو Dubnow في **تاريخ اليهود في روسيا وبولندا** ما يلي: «عشيةَ احتفالات عيد الفصح في العام ١٩٠٣، انتشرتْ شائعاتٌ غامضةٌ في كيشينيڤ [عاصمة بيسّارابيا*] تتحدث عن مقتل خادمةٍ مسيحية، وكان مقتلها قد نُسب إلى اليهود... وحملتْ تلك الأحداث في كيشينيڤ عشيةَ ذلك الفصح علاماتٍ مميّزةً على نشاط قوي لمنظمة سريةٍ مّا كانت تُضمر خطةً جهنمية معقّدة... وانتشرتْ بياناتٌ يدويةٌ مطبوعة في المدينة، تُخبر الناسَ أنّ مرسوماً قيصرياً قد صدر ويَمْنح الإذْنَ بتوجيه 'عقاب دموي' لليهود طوال الأيام الثلاثة التي تشكّل فترة عيد الفصح المسيحي. لم تقم الشرطةُ بأيّ محاولة لسحب تلك النشرات، والسبب ـ كما انجلى الأمر لاحقاً ـ هو أنّ الشرطة قد كانت جزءاً من المؤامرة... وعشيةَ احتفالات الفصح، توجّه ممثّلو اليهود في زيارة رسمية إلى حاكم المدينة ورئيس الشرطة، راجين أن يُمنَحوا الحماية، فتلقوا ردّاً فاتراً بأنّ الأوامر الضرورية قد أعْطيتْ وأنّ الإجراءات المناسبة لضمان أمنهم قد اتُّخذَت».

ويتابع دوبناو: «اندلعَ الحريقُ الهائلُ الذي أُعِدَّ له علناً بواسطة مثيري الفتنة في اللحظة التي كانت مقرَّرة سلفاً. ففي يوم الأحد السادس من نيسان، وهو اليومُ الأول من الفصح المسيحي واليومُ السابع من العطلة اليهودية، بدأتْ أجراسُ الكنائس تُقرع في وقت الظهيرة، وأخذ حشدٌ كبير من المواطنين والحرفيين الروس، الذين كانوا من دون شك يتصرفون بناءً على إشارة محددة، بالانتشار في كل أنحاء البلدة، وبدأوا بمهاجمة البيوت والمتاجر اليهودية. وكان قد سبق تلك الزُّمَرَ مجموعةٌ من أشقياء الشوارع قاموا بقذف الحجارة على الشبابيك. وحين رأى المشاغبون، الذين كان عددهم قد تضخّم بانضمام أولئك «المقاتلين» الشباب، أنّ الشرطة لم تقم بأيّ مسعى للتدخل، أخذوا في اقتحام البيوت والمتاجر وإلقاء محتوياتها في الشارع حيث كانت تُحطَّم أو تُنهَب من قِبل الحشد المُحتَفِل. ولكنْ حتى في ذلك الوقت ظلتْ مفارزُ الشرطة والجنود، التي كانت متمركزةً في الشوارع، دون حراك ولم تقم بأيّ مسعى لاعتقال المشاغبين. وقد اعتُبِرَ توجُّه الشرطة هذا في أعين الرعاع إثباتاً أكيداً على أنّ الشائعات المتعلّقة بوجود إذْنٍ من القيصر 'لضرب اليهود' أمر صحيح. وملأتِ الشوارعَ حشودٌ هائلةٌ من الرُّعاع في حالةٍ من السُّكر يصيحون: 'الموت لليهود! اضربوا اليهود!'».

ويكمل دوبناو: «في المساء تراجع النهبُ لصالح القتل. فبدأ القتلة، مسلَّحين بالهروات والسكاكين، بالإغارة على اليهود في السيارات وفي الشوارع وفي البيوت، مسبِّبين لهم جراحاً بليغةً، بل قاتلةً أحياناً. ولكنّ رجال الشرطة والجيش ظلّوا، حتّى في تلك الأثناء، دون حراك؛ ولم تتدخل الشرطةُ على الفور إلاّ حين قامت مجموعةٌ من اليهود المسلَّحين بالعصيّ بمحاولة طرد القتلة في أحد الأماكن، فجرَّدَت الشرطةُ المدافعين من أسلحتهم.

«في العاشرة مساءً توقّف النهبُ والقتلُ فجأةً، وسَرَتْ شائعةٌ بأنّ القيادة العامة للمشاغبين كانت تعقد اجتماعاً لبحث الخطط التالية لعمليات القتال، وأنها كانت تعدّ الترتيبات لتنفيذ مجزرةٍ منظّمَة. وما لبث الجيشُ أنْ تسلّمَ الأوامر الضرورية. وخلال يوم السابع من نيسان بكامله، منذ الفجر وحتى الثامنة مساءً، كانت كيشينيڤ مسرحاً لأعمال وحشية قلّما وُجِدَ ما يوازيها حتى في أكثر العصور بربريةً... فخلال ذلك اليوم بكامله، كانت العِربات تُشاهد في الشوارع وهي تنقل اليهودَ الجرحى والقتلى إلى المستشفيات التي حُوِّلتْ إلى مستشفيات ميدانية للأمراض السارية. ولكن هذا المنظر نفسَه لم يدفع بالشرطة إلى التدخل... وأمّا حاكم بيسارابيا، فون رابنْ، الذي أتاه في اليوم الثاني للمذبحة وفدٌ يهوديٌّ في زيارة رسمية متوسّلين إليه أن يوفّر لهم الحمايةَ، فقد ردَّ قائلاً بأنه لا يستطيع عمل شيءٍ لأنه لم يتلقَّ تعليماتٍ من سانت بطرسبرغ [عاصمة الامبراطورية الروسية ومركز القرار السياسي]».

ويواصل دوبناو: «وأخيراً في الساعة الخامسة من بعد الظهر وصلتْ برقيةٌ من مدينة پليڤ، وفي الساعة السادسة ظهرتْ كتائبُ كبيرةٌ من الجند بكامل أسلحتهم في الشوارع الرئيسية. وما إنْ لاحظت الحشودُ أنّ الجنود كانوا مستعدين للتدخل حتى لاذت بالفرار، وبدون إطلاقِ رصاصةٍ واحدة... ومن نافلة القول إنّه لو كانت جاهزيةُ الشرطة والجنود للقيام بواجبهم قد استُعْرِضَتْ في كيشينيڤ لدى بدء المذبحة**، لما كان يهودي واحدٌ قُتل ولا دُمِّر بيتٌ واحد. ولكن الواقع هو أنّ يد القتلة والمشاغبين كانت قد أُطْلِقَتْ يوميْن كامليْن، وكانت النتيجة أن خمسةً وأربعين يهودياً قُتِلوا، وثمانيةً وستين أصيبوا بجراح بليغة أو أُقعِدوا، وخمسمائة أصيبوا بجراح خفيفة، وهذا بالإضافة إلى حالات الاغتصاب التي لم يكن من الممكن تحديدُ عَدَدِها... وفي مقابل العدد الضخم من الضحايا اليهود، كانت هناك حالَتَا وفاة ضمن المشاغبين السكّرى».

* ـ بيسارابيا: إقليم جغرافي ضمن روسيا القيصرية ويضمّ جمهورية ملدوفا وجزءاً من رومانيا وآخر من أوكرانيا. (المترجم)

** ـ Pograom (الپوغروم): كلمة روسيّة تعني «الدّمار»، ولكنّها باتت ـ في عرف اليهود الغربيين على وجه التحديد ـ خاصةً بأيّ مجزرةٍ تقع بحق اليهود. (المترجم)

ويتابع دوبناو: «ودوّتْ صرخةٌ من الرعب في عموم روسيا، وفي البلاد المتحضّرة تقريباً من العالم، عندما انتشرت الأخبار عن مذبحة كيشينيف». وكتب ليو تولستوي معبّراً عن:

> المشاعر المضطرمة من الشفقة على الضحايا البريئة لقسوة العامة، ومن الدهشةِ أمام وحشيةِ جميع أولئك الذين يسمّون أنفسهم 'مسيحيين'، ومن الاشمئزاز من جميع أولئك الذين يسمّون أنفسهم 'مثقفين'، ممّن حرّضوا الرّعاع وتعاطفوا مع أفعالهم. ولكنني شعرتُ برعب خاص تجاه المجرم الرئيسي، وهو حكومتُنا ورجالُ الدين الذين تضمّهم، والذين بذروا مشاعر الوحشية والتعصّب بين الناس، بالإضافة إلى حشد القتلة من الموظفين الرسميين. إنّ الجريمة التي ارتُكبتْ في كيشينيف ما هي إلاّ نتيجةٌ مباشرةٌ لدعاية الكذب والعنف التي أدارتها الحكومةُ الروسية بنشاط كبير... إنّ هذه الحكومة، شأنها شأن الحكومة التركية إبّان مذبحة الأرمن، تبقى غير مكترثة على الإطلاق تجاه أشنع أفعال الوحشية، ما دامت هذه الأفعال لا تؤثّر على مصالحها.

وفي ذلك الوقت، كما يتابع دوبناو، «كان ما تكشّفَ في الصحافة الأجنبية ذا طبيعةٍ أذهلتْ كل أوروبا وأميركا». لقد كان ثمة تحقيقٌ قضائي، ولكنّ المحاكمة أجريتْ «خلف أبواب مغلقة». «وبهذا الفعل، فإنّ الحكومة الروسية الملطخة بالدماء قد رفضتْ سلفاً أن تَردَّ الاعتبار إلى نفسها أمام العالَم المتحضّر، الذي اعتبر أنها هي المحرّض على هذه الكارثة». وكان «اللصوص والقتلة المأجورون من الطبقات السفلى» هم وحدهم الذين حوكموا ودينوا، في حين «نجا منظمو المجزرة وزعماءُ الرعاع من حكم العدالة»، رغم أنّ واحداً منهم «أطلقَ الرصاص على رأسه قبل بدء المحاكمة». وقد حُكم على البعض «بالأشغال الشاقة أو بفترات سجن»، ولكنّ زعماء الفتنة الحقيقيين في الحكومة والجيش والشرطة لم يُحكَم عليهم قطُّ من قبل أيّ محكمة، الأمر الذي روّع «العالم المتحضر» من جديد[1]. وأما «المجرمون الرئيسيون» الآخرون، وهم رجال الدين وغيرهم ممّن أداروا «دعاية الكذب والعنف» التي حرّضتِ الرعاعَ، فقد خرجوا بالطبع(!) سالمين، وثابتين على إيمانهم باستقامتهم الأخلاقية، ومُكرّمين من مجتمعهم.

كان للكارثة «أثر مستديمٌ» على يهود روسيا. وكتب دوبناو: «لم تترك المذابحُ اليهودية [البوغرومات] التي حدثتْ في بداية الثمانينات من القرن الثامن عشر، ولا الفظائعُ التي حدثتْ في موسكو في بداية التسعينات من ذلك القرن، أثراً يمكن مقارنته بالأثر الفعّال الذي سبّبته مذبحةُ كيشينيف على يهود روسيا». فلقد كانت [هذه المذبحةُ الأخيرة] عاملاً أساسياً في موجة الهجرة الكبيرة ليهود روسيا في السنين التالية، وكانت الهجرةُ في أكثر الحالات إلى الولايات المتحدّة، ولكنْ إلى فلسطين أيضاً. وكان من ضمن هؤلاء الذين هاجروا «الآباءُ المؤسِّسون لإسرائيل عندما كانوا فتياناً».

كتب شاعرُ المقاومة القومية العِبريّة الأعظم، حاييم نحمان بيالِكْ Chaim Nachman Bialik، سلسلةً من القصائد الشهيرة «وصف بها عذابات شعبه، وعرّض بخضوع الضحايا الصّامتِ والجبان، واستدعى غضبَ السماء نَفْسَه»[2]، وعبّر عن لوعته ويأسه من هذه المذبحة البربرية التي قُتل فيها ٤٥ يهودياً بوحشية تحت سمع الجيش الروسي والشرطة الروسية وبصرهما، بعد أن طمأنتهم السلطاتُ العليا بأنّ «الإجراءات الضرورية لضمان أمنهم قد اتُّخِذتْ». فقد كتب بيالك في واحدة من هذه القصائد:

> وإذا كان ثمّةَ عدالةٌ ـ فلتُظهِرْ نفسَها على الفور! ولكنْ إذا اظهرَتْ نفسها بعد أن أكون قد مُحيتُ من تحت السموات، فلينخلعْ عرشُها إلى الأبد! ولْتَتفَسَّخ السمواتُ بشرٌ أبديّ! وأنتم يا أيها المتغطرسون، فلتواصلوا عنفكم هذا، ولْتحيوا بالدم الذي ارقتموه، ولْتتطهروا به.
>
> وليكنْ ملعوناً ذلك الرجل الذي يقول: «فَلْنَثْأرْ!» فليس ثمةَ ثأرٌ اخترعه الشيطانُ بعدُ يكافئ دمَ طفل صغير. دَعِ الدمَ يخترق قاع الهاوية! دع الدمَ ينزّ حتى يصل إلى أعماق الظلام، ويُفتِّتَ هناك، في الظلام، كلَّ أسس الأرض المتعفّنة ويصدّعَها.

لقد تكرر ذكرُ عبارة «فليس ثمة ثأرٌ...» مرات عديدةً في إسرائيل خلال السنوات الماضية؛ فقد ذكره مناحيم بيغن وآخرون كثيرون، عندما كانوا يشيرون إلى الأعمال الإرهابية التي نفّذتْها «الوحوشُ التي تسير على قدمين»*. وما لبثتْ ذكرياتُ مذبحة كيشينف البربرية بضحاياها الـ ٤٥ أن استُثيرتْ في إسرائيل حين بلغت الحربُ في لبنان نهايتها. ولكنها لم تُستَثرْ في الولايات المتحدة التي كانت قد طمأنتِ الناسَ في مخيمَيْ صبرا وشاتيلا، «ممّن كانوا يتوسّلون للحصول على الحماية»، «بأنّ التعليمات الضرورية قد أُعطيتْ، وبأنّ الإجراءات المناسبة قد اتُّخذتْ، لضمان أمنهم». ولم تُستَثر الذكرياتُ بالتأكيد من قِبل رجال الدين وأهل الفكر، الذين كانوا لزمنٍ طويل قد «عزّزوا مشاعرَ الوحشية والتعصّب» عبر «دعاية الكذب والعنف» التي كانت المذبحةُ «نتيجةً مباشرة لها»، في الوقت الذي انسحبت فيه قواتُ حفظ السلام الأميركية [من بيروت] خارقةً تعهدَها بحماية السكان العزّل، واقتحم الجيشُ الإسرائيلي بيروتَ الغربية على الفور خارقاً تعهُّده هو الآخر ومُرْسِلاً أدواتِهِ [أي الميليشياتِ اللبنانيةَ التابعةَ له] كي ترتكب مذبحةً

---

١ ـ S.M. Dubnow: **History of the Jews in Russia and Poland,** Philadelphia, 1920, ch.33.

٢ ـ Max Margolis & Alexander Marx: **A History of the Jewish People**, Philadelphia, 1927, p. 710.

* ـ عبارةٌ شهيرةٌ أطلقها مناحيم بيغن في خطابٍ له في الكنيست إبّان اجتياح لبنان، واصفاً بها رجالَ المقاومة الفلسطينية. (المترجم)

كان الجيش الإسرائيلي على دراية تامة بما كان يحدث في المخيمين اللذين أرسل إليهما عصابات القتلة

بالفلسطينيين؛ وهي مذبحةٌ لا توجد كلماتٌ ملائمة لوصفها إنْ كان القَتلُ الجبانُ والوحشيُّ لليهود الخمسة والأربعين في كيشينيف هو بالفعل [كما زعم دوبناو] عملاً «قلّما يوجد ما يوازيه حتى في أكثر العصور بربرية»!.

وعلى العكس مما حصل في كيشينيف، التزم «المجرمون الرئيسيون» الصمتَ في صبرا وشاتيلا، أو أنْحَوا باللائمة على الآخرين (بمن فيهم الفلسطينيون)، أو هُرِعوا إلى الصحافة ليؤكدوا للعالم بأنهم لم يفعلوا شيئاً كان من الممكن أن يُسهم في تشكيل تلك السياسات والتوجهات المعادية للفلسطينيين التي أتاحتْ أصلاً لهذه الأحداث أن تحصل. أمّا في داخل إسرائيل ذاتها فقد كان هناك تعبيرٌ حقيقيٌّ ومؤثّر عن لوعة قطاعات معيّنةٍ من السكان. وكما عرضنا سابقاً [في مكان آخر من هذا الكتاب] فقد كان التأثيرُ العمليّ لرد الفعل هذا، عندما تفاعل في الهيكل العقائدي والسياسي للولايات المتحدة، هو نزعةٌ إلى المزيد من عسكرة المجتمع الإسرائيلي ومن السيطرة على المناطق الفلسطينية المحتلة؛ والولاياتُ المتحدة هي التي تتحمل المسؤولية الرئيسية عن الأحداث التي وصفناها من قبل، والأحداث التي سنتحدث عنها الآن.

[...]

فصل من التاريخ الفلسطيني

بعد رحيل المقاومة الفلسطينية عن بيروت في صيف ٨٢ لا يبدو أنّ أيّة أحداث أخرى وقعتْ في خرائب برج البراجنة، إذ تسلّم الجيشُ اللبنانيُّ السيطرةَ على المخيم.. ولكنّ الأمر كان يختلف في صبرا وشاتيلا اللّذين «أُغلقا تماماً» بواسطة جيش الدفاع الإسرائيلي بحيث «لم يستطع أحدٌ أن يدخل أو يخرج»، وكانا تحت مراقبة إسرائيلية مباشرة من مواقع مُشرفة قريبة(١). وإنّ التقارير الشاملة والمفصّلة التي أعدها صحافيون كُثُر لتَتلو، أساساً، القصةَ التالية:

في يوم الخميس السادس عشر من أيلول، دخلتِ المخيمين سياراتُ نقلٍ تُقلّ جماعاتٍ من جنود الكتائب وجنود سعد حدّاد، قادمين من خلف الخطوط الإسرائيلية إلى منطقة تجمّع كانت إسرائيلُ قد جهّزتْها. وسلكتْ سياراتُ النقل هذه خطوطَ سيرٍ مرسومة ومحدّدةً بعناية. وقد ظهر أنّ الكتائب قد جيء بهم بشكل أساسي من «لواء الدامور»، الذي كان يعمل خلف الخطوط الإسرائيلية منذ حزيران ١٩٨٢. وتتكون هذه الوحداتُ من «بعض أشد العناصر تطرفاً في الميليشيا المسيحيّة» و«لها سجلٌّ موثّقٌ جداً من الفظاعات ضد المدنيين الفلسطينيين»، لكونها قادمةً من قرى عانت ثأرَ منظمة التحرير القاسي للمذابح التي كان حزبُ الكتائب قد ارتكبها في العام ١٩٧٦. وأمّا ميليشيا حدّاد فهي «مُندمجة فعلياً بالجيش الإسرائيلي وتعمل بإمرته بشكل كامل»(٢).

أُرسِلَت القوات التي عبأتْها إسرائيل إلى المخيمين «الأعزلين من أجل مَسْحِهما [تطهيرهما]»، و«تنظيف أعشاش الإرهابيين» (بحسب قول شارون). ولم يكن يصعب على أيِّ شخص يمتلك الحدَّ الأدنى من المعرفة بالظروف المحيطة تخيُّلُ ما سيحدث. وبحلول ليلة الخميس اتّضح أنّ تلك التوقعات كانت بصدد التحقُّق، مع أدلّةٍ وفيرةٍ على أنّ هناك مذبحةً ما تجري قُدُماً. وطوال ليلة الخميس أنارت الكشّافاتُ الإسرائيليةُ المخيمَيْن، بينما شرعتِ الميليشياتُ عملَها بالذّبح المنظّم للسكان*. واستمرت المذبحة حتى السبت، وتحت مراقبة العسكر الإسرائيليين المتمركزين على بعد بضعة مئات من الأمتار. واستُعملت البلدوزراتُ لجرف الجثث ونقلها بعيداً، أو لدفنها تحت الحطام. وكان أحدُ تلك «القبور الجماعية التي حُفرتْ بالبلدوزرات» يقع مباشرةً تحت مركز قيادةٍ إسرائيليّ، وتُمْكن مِنْ على سطح هذا الموقع رؤيةُ «القبر الجماعي والمخيم من خلفه رؤيةً مباشرة». وأما جنود جيش الدفاع الإسرائيلي «المتمركزون على بعد أقل من مئة ياردة، فلم يستجيبوا لأصوات إطلاق الرصاص المستمرة أو لمرأى سيارات النقل المحمّلة بالجثث بهدف نقلها بعيداً عن المخيمَيْن»، وأخبروا المراسلين الصحفيين الغربيين أنْ «لا شيء غير عادي» يحدث، في ما كانوا [أي الجنود الإسرائيليون] يختلطون مع جنود الكتائب الذين كانوا يأتون للراحة بين فترات المهمات داخل المخيمَيْن(٣).

يومَ الجمعة عصراً، التقى رئيسُ هيئة الأركان «ايتان» والجنرالان «دروري» و«يارون» بقادة الكتائب، فهنّأهم ايتان على «صنيعهم الجيد(٤)» وقدّمَ لهم بلدوزراً أُزيلتْ عنه

---

١ - Thomas Friedman, **New York Times** (NYT), Sep.26, 1982 (...)

٢ - Friedman, **NYT** Sep. 20, 21, 26, 27.

* - يزعم الكتائبيّون أنّ المدفعية الإسرائيلية، إلى جانب توفيرها الإنارةَ لهم، قد ساندتهم أيضاً ليلةَ الخميس في تذليل «منطقة مستعصية في المخيم» كان فيها بعضُ المقاومة. ويزعمون أيضاً أنّ إسرائيليين بملابس عسكرية كتائبية قد رافقوهم. (المؤلف)

٣ - David Lamb, **Los Angeles Times** (LAT), Sep.20, 1982.

٤ - Gidon Alon, **Ha'aretz**, Jan 11, 1983.

علاماتُ جيش الدفاع الإسرائيلي، وأجازَ لهم البقاءَ في المخيمين اثنتَيْ عَشْرَةَ ساعةً أخرى. واستمر القتل. وفي الساعة الخامسة من صبيحة يوم السبت بدأ القتلةُ بمغادرة المخيمين، وانتهت المجزرةُ بعد ٣٦ ساعة من بدئها. وفي صباح ذلك السبت «دخل المراسلون الصحفيون المخيمين قبل فترةٍ طويلة من دخول أيّ من الجنود الإسرائيليين»[١]، وبدأت القصة الكاملة تصل إلى العالم الخارجي. والحق أنّ الجنود الإسرائيليين، بناءً على تقرير قدَّمه وزيرُ الدفاع شارون إلى الكنيست، لم يدخلوا مخيم صبرا حتى يوم الأحد، أي بعد مرور وقت طويل على وصول أخبار المذبحة إلى العالم الخارجي، ولم يدخلوا شاتيلا على الإطلاق. وهذه حقيقة لم تمنع الحكومةَ الإسرائيلية من ادّعاء فضلها رسمياً في إنهاء المذبحة عندما بدأ ردُّ الفعل العالمي يتوالى!

يتّضح من الظروف المحيطة ومن طبيعة انتشار الجنود، أنّ جيش الدفاع الإسرائيلي كان على دراية تامة بما كان يحدث في المخيمين اللذين أرسلَ إليهما هذا الجيشُ عصاباتِ القتلة التي نظَّمها... تماماً كما كان من غير الممكن لجيش القيصر وشرطته أن يُخفِقا في معرفة ما كان يحدث في الحيّ اليهوديّ في كيشينيف. كتب هيرش غودمان، المراسلُ الصحفي العسكري في جريدة **جيروسالم پوست** [في ٢٤ أيلول]: «لقد عرف القادة الكبار في جيش الدفاع الإسرائيلي منذ ليلة الخميس أنّ مدنيين كانوا يُقتلون من قبل جنود كتائبيين في مخيم شاتيلا». وتلقّى الجنرال يارون اتصالاً لاسلكياً من قائد الكتائب في شاتيلا يصرّح فيه «أنّ ٣٠٠ مدنيّ وإرهابي قد قُتِلوا»؛ وهذه واحدة من سلسلة من الحقائق «تتناقض تناقضاً مباشراً» مع تصريحاتٍ علنيّة لوزير الدفاع شارون ورئيس هيئة الأركان ايتان بأنه حتى صباح السبت لم تكن هناك إلاّ «شُبهاتٌ» فحسب [بوقوع مجزرة][٢]. وهناك أدلة أخرى على أنّ يارون كان على علم بالمجزرة مع حلول مساء الخميس، وقد أظهرتْها «لجنةُ كاهان للتحقيق». وبناءً على ما أوردته صحيفة **جيروسالم پوست** [أيلول ٢٤، ١٩٨٢]، فإنّ المخابرات الأميركية قَدَّمتْ «معلوماتٍ استخباريةً ثابتةً... تؤكّد أنّ ضبّاط الجيش الإسرائيلي في بيروت كانوا على دراية تامةٍ بالتقتيل الوحشي قبل ساعات عديدةٍ من دخول قوات الدفاع الإسرائيلية فعلاً إلى المخيمات»، وهو الدّخول الذي تلا دخول الصحفيين بمدة طويلة. وقالت الصحيفة إنّ مصدراً أميركياً حسن الاطلاع

«ايتان» هنّأ القتلة على «صنيعهم الجيد» وقدّم لهم بلدوزراً آخر بعد أن أزال عنه علامات الجيش الإسرائيلي

أشار إلى مسؤولين عسكريين إسرائيلين كبار كانوا ينتظرون خارج المخيمَيْن في بيروت الغربية، وقال: «إنهم ببساطة وقفوا مكتوفي الأيدي، ولم يفعلوا شيئاً لوقف المذبحة». وقال مسؤولون أميركيون إنّ شارون وإيتان اعتبرا أنّ العملية «مبرَّرة»، والسبب هو «الحاجة المفترضة الكبرى لـ'تطهير' كلّ العاصمة اللبنانية من الإرهابيين. وإذا كان لا بدّ من موت أبرياء، فذلك هو ثمن كلّ الحروب»[٣]. لربما كان ضبّاطُ القيصر قد أضمروا أفكاراً شبيهةً بهذه [حين أحجموا عن ردع المشاغبين في كيشينيف]!.

روى مستخدمون طبيّون أنّه، بحلول الساعة العاشرة من مساء الخميس، وصل ألفان (٢٠٠٠) من المدنيين المذعورين إلى مستشفاهم، باحثين عن ملجإ وهم يصرخون: «الكتائب، حدّاد، إسرائيل». وكانوا يشيرون إلى أعناقهم، ليوضحوا أنّ ثمة أناساً كانت تُقطع حُلوقُهم. وبحلول الساعة الخامسة والنصف من صبيحة يوم الجمعة، تَلَقّتِ الاستخباراتُ الإسرائيليةُ مزيداً من المعلومات تفيد بأنّ ٣٠٠ «مدني وإرهابي» قد قُتِلوا، ونَقَلتْ تلك المعلومات إلى وزارة الدفاع. وبحلول الساعة الثامنة صباحاً أعلم جنودٌ إسرائيليون ضبّاطهم الآمرين «بأنّهم رأوا جنوداً من الكتائب يَقْتلون مدنيين في بيوتهم»، فيما كان مدنيّون آخرون يُضْرَبون ويُرْكَلون، وإذّاك قال الضبّاط الأعلون للجنود: «نحن نعلم ذلك. إنّه لا يتناسب مع أذواقنا، ولكنْ ليس علينا أن نتدخل في الأمر»[٤].

بحلول يوم الجمعة كان المراسلون الصحفيون ينقلون أخبارَ الفظائع. رَوَتْ لورِنْ جَنْكِنْز من صحيفة **واشنطن پوست** أنه «بالرغم من أن نطاقاً أمنياً إسرائيلياً مشدّداً حاول إبقاء المراقبين خارج المخيمَيْن الفلسطينيين في ضاحية بيروت الجنوبية، فقد وردتْ تقارير من مدنيين تمكّنوا من النجاة من انتقام رجال المليشيا العنيف»؛ وأعطت المُراسِلةُ الصحفيةُ تفاصيل على ذلك[٥]. كما روى كولِنْ كامپلّ من صحيفة **نيويورك تايمز** في يوم الجمعة ما يلي:

---

١ ـ Friedman, **NYT**, Sep 20.

٢ ـ Alon, op. cit.

٣ ـ Report From Wachington.

٤ ـ Alon, op. cit.

٥ ـ Loren Jenkins, **Washington Post** (WP), Sep 18, 1982.

أكثر من ربع قتلى المذابح كانوا من اللبنانيين، وبين القتلى ٩ يهوديات كنّ يسكنّ المخيم

بوجود الدبابات الإسرائيلية التي تحرس في الخارج، دخل رجالُ ميليشيا الكتائب المدعومون من إسرائيل إلى مخيمَيْ صبرا وشاتيلا المدمَّريْن مشياً على الأقدام وبسيارات الجيب. وكان من الممكن سماعُ أصوات الأسلحة الأوتوماتيكية قادمةً من داخل المخيمين. وبدأتْ تظهر نساءٌ يبكين بكاءً هستيرياً في وسط بيروت الغربية، ويقلن إنّ كتائبيين مسلّحين أخذوا أزواجهنّ وأبناءهنّ[١].

في صباح يوم الجمعة علم [الصحفيُّ الإسرائيلي] «زئيف شيف» بتلك الفظائع وأوصل الحقائق إلى ممثلي الحكومة، وإن لم يكن ذلك على الملإ. وكتب لاحقاً: «من غير الصحيح أننا لم نعلم بالجريمة ـ كما تدّعي المصادرُ الرسميةُ ـ إلاّ في ظهيرة يوم السبت بعد ورود التقارير الصحفية من المراسلين الصحفيين الأجانب في بيروت. ففي صباح يوم الجمعة عندما عَلِمتُ بالمجزرة في المخيمَيْن، مرّرتُ المعلومات إلى ممثلٍ حكومي عالي المنصب [هو الوزير موردخاي زيبوري]، وأعلمُ أنه قد تصرّف على الفور». بل الحق أنّ «شيف» أخبرَ وزيرَ الخارجية «شامير»، الذي ادّعى أمام «لجنة كاهان للتحقيق» أنه لم يَفهم الرسالة. وأضاف زئيف شيف أنّ «هذه القضية سوف تلاحقنا إلى الأبد، وسيُدّعى الآن أننا نزّعنا أسلحة 'المرابطون'* والميليشيات اليسارية، وأننا اعتقلنا الرجال الفلسطينيين كي نفسح المجال أمام الكتائب لإبادة أطفالهم ونسائهم وشيوخهم دون أية مقاومة»[٢].

وبينما كانت الفظاعات تُنفَّذ على قدم وساق كان في وسْع الجنود في مواقع المراقبة الإسرائيلية، وحدهم، رؤيةُ ما يحدث. وأشار [الصحفيُّ الأميركي توماس] فريدمان إلى أنه كان بالإمكان رؤية القبور الجماعية بالعين المجرّدة من «الموقع الإسرائيلي المزوَّد بمناظير وتليسكوب» غير أنّه «لا يُعرف ما إذا كان الإسرائيليون قد نظروا إلى الأسفل فعلاً ورأوا ما كان يحدث». لكنّ ما هو معروف هو أنّ جنود جيش الدفاع الإسرائيلي «كانوا جالسين باسترخاء... يقرأون المجلات ويستمعون إلى موسيقى سايمون وغارفنكِل»[!]. «وليس من الواضح ما إذا كانت لدى الإسرائيليين فكرة عمّا كان يجري في المخيمَيْن، رغم أنه لم يكن من الصعب أن يتحققوا من ذلك من مواقع المراقبة التي كانوا فيها، لا بالنظر وحده بل أيضاً من أصوات إطلاق الرصاص وأصواتِ الصرخات الآتية من المخيمين»[٣]. وهنا ليس من الواضح، لنا نحنُ هذه المرة، إنْ كان هذا الصحفيُّ قد كتب ذلك من باب السخرية!

لقد قاس مراسلُ مجلّة **نيوزويك**، راي وِلْكِنْسون، المسافةَ بين موقع القيادة الإسرائيلي وبين المخيم فوجد أنها ٢٥٠ خطوة، وتحقّق من مجال الرؤية من موقع القيادة الإسرائيلي نفسه. وكتب أنّ المخيمَيْن «مرئيّان بوضوح تام»، بما في ذلك «أدقّ التفاصيل»، وذلك باستخدام المناظير. لقد كان بإمكان الجنود الإسرائيليين المزوَّدين بمناظير متطوّرة مراقبةُ ما كان يحدث من موقع القيادة ذاك، المنصوبِ على سطح مبنى من سبع طبقاتٍ، ومن موقع متقدم آخر للجيش اللبناني «كان يوفّر مشهداً مباشراً إلى المخيمات». وهناك راقب الجنود الإسرائيليون ما يحدث «ووقفوا متفرّجين، بينما حفر القتلةُ قبراً جماعياً مساحتُهُ خمسون ياردة مربعة، وألقَوْا فيه بأجساد الفلسطينيين ـ وكل هذا ضمن مجال الرؤية الذي يتمتع به موقعُ المراقبة الإسرائيلي»، وكانت البلدوزرات «تهدرُ في صبرا ومغارفها مليئةً بالأجساد»[٤]. كان هذا قبل أن يسمح ايتان، رئيسُ هيئة الأركان، بتقديم بلدوزر آخر إلى الكتائب بعد إزالة علامات الجيش الإسرائيلي عنه، في ظهيرة يوم الجمعة عندما أرْسَل الكتائبَ إلى المخيمَيْن مرةً أخرى لمواصلة «صنيعهم الجيد».

أثناء المجزرة، مَنَعَ جنودٌ إسرائيليون وجنودٌ من ميليشيا سعد حداد مراسلَ **نيوزويك**، جايمس برينچل، من دخول مخيم صبرا. وكتبت المجلة:

بينما كانت أصواتُ البنادق تُفرقع داخل المخيم، سأل برينچل أحدَ رجال سعد حدّاد عمّا كان يحدث، فأجاب منتشياً: «إنّنا نذبحهم». وفي جواره قال كولونيل إسرائيلي عرّف نفسَه باسم «ايلي» إنّ جنودَهُ لن يتدخلوا «لتطهير المنطقة». وحين سُئِل إن كان خائفاً من إمكانية أن يرتكب رجالُ حداد فظائع، أجاب: «نحن نأمل ألاّ يفعلوا أيَّ شيء مثل ذلك»[٥].

ووقفَتْ لورِنْ جَنكنز مراسلةُ صحيفة **واشنطن پوست** فوق قبر جماعي، ونظرتْ إلى الأعلى باتجاه موقع المراقبة الرئيسي للجيش الإسرائيلي وكتبتْ:

---

١ ـ Colin Campbell, **NYT**, Sep 18, 1982.

* ـ حركة الناصريين المستقلين، بزعامة إبراهيم قليلات، وهو تنظيم ناصري مسلّح أغلبُ عناصره من مسلمي بيروت السُنّة. (المترجم)

٢ ـ Ze'ev Schiff, **Ha'aretz**, Sep 20, 1982 (...).

٣ ـ Friedman, **NYT**, Sep 26.

٤ ـ Ray Wilkinson, **Newsweek**, Oct 4, 1982.

٥ ـ **Newsweek**, Sep 27, 1982.

إنّه مكان كانوا قد وضعوا فيه تليسكوباتٍ عملاقةً قبل تقدُّمهم إلى داخل المدينة، لتحديد مواقع القنّاصين. وعندما وقفتُ هناك صباحَ يوم السبت ونظرتُ إلى الأعلى، كان هناك ستةُ إسرائيليين ينظرون إليَّ مباشرةً. لقد وقفوا يراقبون طوال هذه المأساة الفظيعة، عندما كان الناس يُجلَبون إلى هنا، فَيُطْلَقُ عليهم الرصاصُ، ويُلقى بهم في هذا القبر، ثم يُحْمَلون. لقد كان هذا المخيمُ بالأساس مخيمَ مدنيين عُزَّلٍ[١].

وعلّق ممثلو لجنة الصليب الأحمر الدولية في شاتيلا وجنودُ الجيش اللبناني بأن من المستحيل التصوُّرَ بأنّ جنود جيش الدفاع الإسرائيلي «لم يستطيعوا رؤيةَ ما يحدث هنا؛ ذلك أنّ المكان يقع أمام أُنوف الإسرائيليين»!. وروى الجنود كذلك أن نساءً فلسطينياتٍ مساءَ يوم الخميس «أخْبَرْنَهُمْ، وهنّ في حالةٍ هستيريةٍ، أنّ رجال الكتائب كانوا يطلقون النار على أطفالِهِنَّ ويضعون الرجال في سيارات نقل»، وحين أُعْلِم الضابط الآمرُ بذلك، أجاب: «كل شيء على ما يرام، لا تقلقْنَ»[٢].

إنّ على القارئ أن يحتفظ بهذه التحقيقات العيانية في ذهنه، ما إن ننتقل، فيما بعد، إلى الحديث عن تقرير لجنة كاهان الممجَّد كثيراً.

لقد كشف تحقيقٌ أجرتهُ محطة الأخبار التلفزيونية ABC أنّ ٤٥ ضابطاً إسرائيلياً على الأقل كانوا على علم، مع حلولِ بعد الظهر من يوم الجمعة، بأنّ هناك مذبحةً تجري ـ أي في الوقت الذي كان فيه رئيسُ هيئة الأركان [ايتان] يجيز فيه للكتائب الرجوعَ لإتمام «الصنيع الجيد» الذي هنّأهم على القيام به. ويومَ الجمعة عصراً صُوِّرتْ نساءٌ فلسطينياتٌ هربن من المخيمَيْن ورحن يناشِدنَ الجنود الإسرائيليين التدخّلَ لوقف المذبحة، ولكنهم أخبروهنَّ بأنهم لا يستطيعون ترك مواقعهم، فأُعِدن من حيثُ أتَيْنَ. وقبل ذلك ببضع ساعات، حاول الصحفي النرويجي جون هامبرو دخولَ المخيم، ولكنه مُنع بواسطة بلدوزر كانت مغرفتُهُ مليئةً بالجثث. كما أكّد ضابطٌ إسرائيلي أنه «من المحقَّق، الذي لا يساوره أدنى شك، أنّ الجميع كانوا على علم بالأمر مع حلول بعد الظهر من يوم الجمعة. أنا أعلم أنه في ذلك الوقت كان معلوماً أنّ الناس يُقتلون في شاتيلا». وأورد طبيبٌ من مستشفى غزة القريب أنّ «المرضى ـ الضحايا ـ جميعاً هم في واقع الأمر نساءٌ وأطفال» يعانون جراحاً سبَّبها إطلاقُ الرَّصاص[٣].

خرقت إسرائيل قاعدة رئيسية من «الاتيكيت» الدولية: «اقتلْ حين لا يكون قربك كثيرٌ من المراسلين الصحفيين»

حين مَثَل الجنرال آموس يارون، الذي قاد القوات الإسرائيلية في منطقة بيروت، للشهادة أمام «لجنة التحقيق» الرسمية، وَصَفَ عمليةَ تبديل جنود الكتائب بدفعات جديدة بعد ظهيرة يوم الجمعة، «وأشار إلى أنّ ايتان لم يُبدِ أيَّ تردد بالسَّماح لوحدات الميليشيا بالبقاء في صبرا وشاتيلا حتى الصباح التالي. وشهد بأنّ السبب الرئيسي لتوجيه الأمر إلى وحدات الكتائب بالانسحاب من المخيمات يوم السبت، ١٨ أيلول، لم يكن خوفاً من موت المدنيين، بل لأنّ مسؤولين رسميين أميركيين لم يسمِّهم كانوا يضغطون على الإسرائيليين لكي يُخرجوا الكتائب»[٤].

والواقع أنّ المسؤولين الأميركيين كانوا يضغطون فعلاً على إسرائيل لوقف المذبحة. فبعد وقت قصير من سحب جنود الكتائب، ولكنْ قبل دخول الصحفيين إلى المخيمَيْن، طالب المبعوثُ الأميركي الخاص، موريس درايبر، بالتالي:

عليكم أن توقفوا المذبحة. إنّهم [القتلة] فاحِشون obscene.
إنّ أحد رجالي في المخيم يقوم بإحصاء الجثث. عليكم أن تشعروا بالخجل. لديكم سيطرة مطلقة على المنطقة، ولهذا فأنتم مسؤولون عنها.

وفي الليلة السابقة على ذلك كان [درايبر] قد حذّر من «نتائج رهيبة» ـ وهو ما كان قد تحقق وانتهى الأمر ـ إذا سُمِح للكتائب بدخول المخيم[٥].

تبيِّن شهادةُ الجنرال يارون أنّ جيش الدفاع الإسرائيلي بذل جهداً حقّاً من إجل إنقاذ النّاس من عصابات القتلة التي كان ذلك الجيشُ نفسُهُ قد نظّمها وأرسلها إلى المخيمين. فلقد شهد بأنه في الساعة السادسة من صبيحة يوم السبت رأى الكتائب يأخذون بعيداً جماعةً من الناس «من ذوي الشعر الأشقر»، وهم أطباء وممرضات من مستشفى غزة، «فأسرع إليهم الجنرال يارون وأمرهم بإطلاق سراح الأسرى على الفور»[٦]. وهكذا فسيكون من غير الإنصاف، ودليلاً إضافياً

---

١ ـ Loren Jenkins, "All Things Considered", NPR, Sep 20, 1982.
٢ ـ Loren Jenkins, **Ha'aretz**, Sep 23, 1982.
٣ ـ ABC News, **Closeup**, Jan 7, 1983, 10p.m.
٤ ـ Edward Walsh, **Washington Post - Boston Globe** (WP - BG), Nov. 8, 1982.
٥ ـ Testimony of Israeli Foreign Ministry Official Bruce Kashdan before the Commission of Inquiry; Norman Kempster, **LAT**, Nov. 22, 1982.
٦ ـ Alon, Op. cit.

على المعيار المزودج، هذا إن لم يكن لاساميةً صريحةً، الزعمُ ـ كما فعل البعض ـ بأنّ القوات الإسرائيلية لم تقم بأيّ مسعى لوقف المجزرة!*.

ومن غير أن نتعقّب القضيةَ أكثر من ذلك ـ وما أوردناه لا يعدو أن يكون خدوشاً على السطح فحسب ـ فإنّه يكفي أن نلاحظ بأنّ تشبيه ما حدث بمذبحة كيشينيف تشبيهٌ غريب جداً، هذا إذا وضعنا جانباً حجمَ المذبحة، والأسابيعَ العشرةَ من القصف الإسرائيلي القاسي المتزايد الذي سبق المجزرة والذي إذا قارنّا به مذبحةَ صبرا وشاتيلا بهتَتْ هذه إلى حد التفاهة.

كم كان حجم العملية، وما هو حجم الخسائر؟ لقد أقرّتِ الحكومةُ الإسرائيلية، بعد الكثير من الأكاذيب والمراوغات ـ التي يمكننا تجاوزُها ـ بأنها أرسلتْ جنودَ الكتائب إلى المخيمَيْن، واستقرتْ على رقمٍ يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ جندياً كتائبياً؛ والرقم هو ١٥٠ بحسب «لجنة كاهان». وكانت الرواية الإسرائيلية الرسمية الأخيرة هي أنّ هؤلاء أُرسلوا لِـ«تطهير» المخيمَيْن من ٢٠٠٠ إرهابي مسلّحين بشدّةٍ كانت منظمةُ التحرير الفلسطينية قد تركتهم خارقةً بذلك «اتفاقيات حبيب». وعلّق الصحفيُّ ب. مايكل في صحيفة **هآرتز** بالقول: «إنّهم في غاية البطولة، إذن، هؤلاء المقاتلين المسيحيين![1]». وأورد إدوارد والش الردَّ الرسميَّ لبيغن إلى لجنة التحقيق، وفيه «كرّرَ تأكيده بأنه لم يكن هناك أيُّ سبب للتنبؤ بحدوث مذبحة، وقال إنه كانت لدى الحكومة معلوماتٌ موثّقة بأنّ ٢٠٠٠ من الفدائيين الفلسطينيين كانوا متركّزين في المنطقة». ويعلّق والش: «ولكن لم يشرحْ أحدٌ علناً كيف توقّع الإسرائيليون أن يَهْزم ما بين ١٠٠ إلى ١٣٠ كتائبياً قوة [كبيرة] كهذه من الفلسطينيين»[2]. وزار روبرت سورو من مجلة **تايم** المخيمَيْن قبل أيام قليلة من الهجوم، فلم يجد أيَّ وجود عسكريّ فيهما[3]. حقّاً، لقد أثبت الإرهابيون الألفان براعةً في التملّص [والإفلات]!*.

بالطبع لا تزال هناك تساؤلاتٌ أخرى أيضاً، غير ذلك التساؤل الذي طرحه ادوارد والش في صحيفة **واشنطن بوست**. فلقد ادُّعِيَ أنّ الـ ١٠٠ ـ ١٥٠ كتائبياً قد أُرسلوا إلى المخيمَيْن لتجنّب الخسائر التي قد تقع في صفوف الجيش الإسرائيلي في ما كان متوقعاً أن يكون قتالاً ضارياً

[بين الإسرائيليين و«بقايا الإرهابيين»]. فما مدى صدق هذا الادعاء، إذا أخذنا بالاعتبار حجمَ القوات التي أُدخلتْ إلى المخيمَيْن؟ وعندما يُنبذ هذا الادّعاءُ بوصفه هراءً صريحاً، وهو فعلاً كذلك، فما هو التفسير المتبقي المعقول لقرار إسرائيل إرسالَ الكتائبيين من «لواء الدامور» وجنود حدّاد لكي يدخلوا مخيمَيْن فلسطينيين أعزلين، وهي [أي اسرائيل] تدرك تمامَ الإدراك ما فعلوهُ في الماضي وما سيفعلونه ثانيةً؟ فلنستدع في هذا الصددِ إلى أذهاننا من جديد أنّ ادعاء إسرائيل الرسميّ لاجتياح بيروت الغربية إنّما هو من أجل حماية الفلسطينيين من هول الكتائب[!].

ويظهر أنّ «الإرهابيين الألفين» من الفلسطينيين المسلّحين بشدة قد كانوا قليلي الكفاءة على نحو استثنائي! إذ إنّ «الكتائبيين المئة والخمسين» الذين أُرسلوا للتغلّب عليهم قد تكبّدوا قتيلين حسب التقارير ـ ويا للمصادفة الرهيبة، فهذا هو تماماً عدد الإصابات التي تكبّدها القتلة في كيشينيف![4]. وواقع الأمر أنّه ليس من الواضح ما إذا كان هذان الاثنان من القتلى أم من الجرحى.

ولننتقل الآن إلى عدد الإصابات التي تكبّدها «الإرهابيون الألفان». فلقد شهد وزير الدفاع شارون، معتمداً على «أرقام

---

* ـ تلفت نظر القرّاء الى أنّ المؤلف قد كتب العبارة الأخيرة من باب التهكّم، لأن الأطباء والممرضات المذكورين أوروبيون لا فلسطينيون أو لبنانيون. (المترجم)

١ ـ **Ha'aretz**, Nov. 12.

٢ ـ **WP - BG**, Dec. 26, 1982.

٣ ـ **Time**, Oct 4, 1982.

* ـ هذه الجملة هي أيضاً على سبيل التهكّم، كما لا يَخْفى على القارئ اللبيب. (المترجم)

٤ ـ Alon, Op. cit.

من شعبة الاستخبارات العسكرية»، أنّ ما بين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ شخص قُتِلوا[١]، أي ما يقارب ٢٠ ضعف عدد قتلى مذبحة كيشينيف، وهكذا يكون قد قُتِل ٣٧٥ إرهابياً مقابلَ كلّ قتيل من مقاتلي الكتائب. ولقد اعتُمِدَ هذا الرقم بوصفه التقديرَ الأقربَ إلى الصحّة من قِبل «لجنة كاهان»، مستندةً إلى الاستخبارات الإسرائيلية ومتجاهلةً المصادر اللبنانية... في حين تزعم الحكومةُ اللبنانية أنّ ٧٦٢ جثةً قد وُجدَتْ فعلاً وأنّ ١٢٠٠ غيرها دُفنتْ بصورة منفردة من قبل الأقارب؛ وبهذا يصل عددُ القتلى إلى ما يقارب الـ ٢٠٠٠. وربما كان هؤلاء هم «الإرهابيين الألفين» الذين اختلقتهم الدعايةُ الإسرائيلية![٢]

ووجد توماس فريدمان لاحقاً أنه «قد غدا من الواضح الآن أنّ ربع القتلى، وربّما أكثر من ذلك بكثير، كانوا من المسلمين الشيعة اللبنانيين»[٣] وأنّ معظم الفلسطينيين قَدِموا من الجليل الأعلى ومن يافا في العام ١٩٤٨ ـ الأمر الذي يعني أنهم كانوا قد طُردوا بالقوة على الأرجح. وأوردتِ التقاريرُ أنّ من بين القتلى تسعَ نساء يهوديات [كنّ يسكنّ في المخيم][٤]. وأضاف فريدمان، مستشهداً بمصادر فلسطينية وطبيّة مستقلة، أنّ عدة مئات من الرجال جُمِعوا أثناء المذبحة، ثم أُرسلوا إلى معسكر الاعتقال الإسرائيلي في «أنصار». والواقع أنّه كانت هناك منذ البداية مؤشراتٌ على حدوث ذلك.

ومع بلوغ المذبحة نهايَتَها، عَرَضَ جيشُ الدفاع الإسرائيلي على الفور الفعاليّةَ التي يمتلكها حين يكون راغباً في ذلك، فوجّه انتباهه إلى أول الذين نَجَوْا من المجزرة بشكلٍ مّا. إذ تقول التقارير إنه في وقت مبكّر من صباح السبت حين انتهى القتل، استعملتِ القواتُ الإسرائيليةُ المتمركزةُ خارج المخيم مكبّراتِ صوتٍ تأمر الناجين بالتوجّه إلى الستاد الرياضي القريب [«مدينة كميل شمعون الرياضية»] حيث «تمّ فصلهم إلى مجموعات صغيرة، وجرى التحقيق معهم، حسب أقوال شهود عيان» ومن ثم أُطلِق سراح معظمهم، «ولكنّ بعضهم ـ الذين اشتبه الإسرائيليون بانتمائهم إلى منظمة التحرير ـ اعتُقِلوا»[٥]. وبعد أيام قليلة أشارت وزارةُ الخارجية الأميركية «إلى أنّ هناك مصدراً جديداً لقلق الإدارة [الأميركية] بسبب تواتر تقارير تفيد بأنّ القوات الإسرائيلية بعد مذبحة الفلسطينيين في مخيميْ بيروت قد أحاطتْ بأعداد كبيرة من الرجال العرب في بيروت الغربية، تشتبه بكونهم فدائيين فلسطينيين، ثم رحّلَتْهم إلى معسكرات اعتقال في جنوب لبنان»[٦]. وأكدتْ إسرائيل أنّ: «نعم، كانت هناك استجوباتٌ. ونعم، كان هناك عدد كبير من الناس جرى اعتقالُهُم». وفي الوقت ذاته، أوردَ أحد التقارير أنّ «أسلحة ثقيلةً استولى عليها الجيشُ الإسرائيلي أثناء اجتياحه لبيروت الغربية المسلمة قد سُلِّمَتْ إلى قوات الميليشيات المسيحية التي تورطتْ وحداتُها في مذبحةِ المدنيين الفلسطينيين في مخيميْ صبرا وشاتيلا في [ضاحية] بيروت»[٧].

إنّ المرء ليتساءَل إنْ كان بإمكان القيصر [نفسِهِ] إنجازُ الأمر بمثل هذهِ الخفة والرشاقة!

أورد زئيف شيف «تحقيقاً مأذوناً» بعد المذابح، يُظهِر بأنّ الأمر لم يكن حالةَ «قتل انتقامي» جرّاء اغتيال [الرئيس «المنتخب» بشير] الجميّل (وهو افتراض لم يكن وارداً في الأساس، إذ لم يكن هناك أيُّ احتمال بأن يكون الفلسطينيون هم الذين قتلوا الجميّل)، بل إنّ المذابح كانت «هجوماً عن سابق إصرار، وكانت مصمَّمةً لإحداث هروب جماعيّ فلسطينيّ من بيروت ومن كل لبنان»[٨]. وأورد دايڤيد شيپلر أنّ «مسؤولين إسرائيليين» كانوا، في وقتٍ يعود إلى أواسط حزيران، «يتداولون في أحاديثهم الخاصة خطةً كان قد درَسها من قَبْلُ وزيرُ الدفاع آرييل شارون، وتقضي بالسماح للكتائب بأن يدخلوا بيروت الغربية والمخيماتِ ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت الحساباتُ تقول بأنّ الكتائبيين، بالدَّيْن القديم الذي عليهم أن يُصَفّوه، وبالمعلومات المفصّلة التي يمتلكونها عن المقاتلين الفلسطينيين، سيكونون أكثر قسوةً وربما أكثر فعاليةً أيضاً من الإسرائيليين»[٩]. وكما ذكرنا سابقاً [في الكتاب] فقد قام الكتائبيون فعلاً بمحاولةٍ كهذه ولكنهم انسحبوا سريعاً أمام مقاتلي منظمة التحرير، وهو ما حدث أيضاً مع جيش الدفاع الإسرائيلي. والأرجح

---

١ ـ David Richardson, **Jerusalem Post**, Dec 12, 1982 (...).

٢ ـ **Christian Science Monitor** (CSM), Oct 14, 1982

٣ ـ Friedman, **NYT**, Jan 30, 1983

٤ ـ **Jerusalem Post**, Sep, 30, 1982

٥ ـ Michael Kennedy and David Lamb, **LAT** Sep, 19.

٦ ـ David Binder, **NYT**, Sep 27.

٧ ـ Jenkins, **WP - BG**, Sep 23, 1982.

٨ ـ **Ha'aretz**, Oct. 28.

٩ ـ **NYT**, Sep 19, 1982.

مجازر المخيمين لا تقارن بالذبح الأعظم الذي حصل جرّاء القصف الإسرائيلي قبل ذلك بأسابيع قليلة

أنّ خطة شارون قد أخذتْ طريقَها الآن إلى التنفيذ بعد أن أُزيلت العقباتُ من طريقها، وما هذه العقبات إلاّ المقاومةُ المسلّحةُ للرعب [أو الإرهاب الإسرائيلي ـ الفاشي].

كان أوّلَ ردِّ فعلٍ إسرائيليٍّ على التقارير الصحفية عن الفظائع، في يوم السبت ١٨ أيلول، هو «أنّنا لا نعلم أيَّ شيء عن هذهِ المذابح المزعومة» (بحسب المتحدّث باسم جيش الدفاع الإسرائيلي). وفي القدس شُجِب الغضبُ الأميريكيُّ من عمليات القتل في المخيمَيْن بوصفه «نفاقاً»(١). ولاحقاً حاولت الحكومةُ الإسرائيليةُ التذرُّعَ بحجج متنوِّعة (كالقول بأنّ الكتائبيين دخلوا المخيمين من منطقة لا تخضَعُ للسيطرة الإسرائيلية،...). ولكنّ هذه الحجج سرعان ما تُخلِّي عنها عندما أصبح واضحاً أنه قد كان هناك، وببساطة، الكثيرُ من شهود العيان الموثوقين. كان الغضبُ العالميُّ شاملاً، وصوّتت الهيئةُ العامةُ للأمم المتحدة على قرارٍ يستنكر المذبحة، وبلغ عددُ الأصوات ١٤٧ صوتاً ضد ٢، ولم يمتنع أحدٌ عن التصويت، وعارضتِ الولايات المتحدةُ وإسرائيل القرارَ بمفردهما كالعادة. ولكنْ في داخل الولايات المتحدة كان هناك استنكار غاضب، وكذلك كان الأمرُ في إسرائيل، وكانت الحالة الأبرز هنا هي التظاهرة الاحتجاجية الضخمة التي شارك فيها ٤٠٠,٠٠٠ شخص، والتي سرعان ما استُغِلّتْ في الولايات المتحدة لزيادة الدّعم الأميركي للمستوطنات الإسرائيلية الجديدة في المناطق المحتلة [غزة والضفة] وللعمليات العسكرية الإسرائيلية في لبنان.

إنّ تهمة «النفاق» التي وجّهها المتحدثُ باسم الحكومة الإسرائيلية [إلى الإدارة الأميركية «الغاضبة»] تتسِم بمقدار معقول من الأهليّة. إذْ لم يكن هناك «غضبٌ» كهذا من القصف الإجرامي للمخيمات منذ الرابع من حزيران ١٩٨٢؛ وهو قصفٌ تسبَّبَ بإصاباتٍ تفوق كثيراً تلك التي سبَّبتها مذبحةُ المخيمَيْن، التي تُعدّ تكراراً إسرائيلياً لمذبحة كيشينيف ولكنْ بمقياسٍ أكبر. بل لم يكن هناك «غضب» كهذا من الحرب [الإسرائيلية على لبنان] نفسها. والأكثر من ذلك، أنّ المذابح الأسبق التي جَرَتْ في أعقاب الاعتداءات الإسرائيلية، كما حدث في غزة في العام ١٩٥٦، لم تستثر أيَّ غضب [غربيّ] رغم أنّ جنود جيش الدفاع الإسرائيلي كانوا هم الذين نفّذوا القتل بأنفسهم آنذاك. إذن ليس من الواضح في بادئ الأمر لِمَ كان على مذابح بيروت أن تستثير مثل هذه المشاعر من الهول والرعب. فالمذبحة من ناحية الحجم تنتمي إلى فئة المذابح التي حصلتْ مؤخّراً دون أن تَسْفَعَ ضميرَ الغرب: مثلاً مذبحة كاسينجا في ناميبيا في العام ١٩٧٨، عندما قُتل ٦٠٠ شخص جرّاء قصفِ طائرات الميراج الفرنسية الصنع، وجرّاء أعمال مظليين نُقِلُوا بناقلاتِ جندٍ من نوع «هرقل» الأميركية الصُّنع(٢)؛ أو مذبحة ريو ساماوال في السلڤادور التي حدثتْ في أيار ١٩٨٠ ودشّنَتْ بداية قتل الفلاحين وأُفرِدَ لها فصلٌ من الفصول الأخيرة من تقارير «Human Rights Administration»؛ أو المذبحة التي قُتل فيها ٣٠٠ من القرويين العزّل في إقليم سان ڤنسنتي في السلڤادور في أواخر آب ١٩٨٢، بواسطة طائرات قاذفةٍ أميركية الصّنع وقواتٍ مضادّةٍ للعصيان متفوّقةٍ ومدرّبةٍ في الولايات المتحدة، وخلّفَتْ «جبلاً من الضحايا ـ أطفالاً وشيوخاً ونساءً» كما قال الناجون(٣)؛ أو المذبحة التي قُتل فيها ٣٠٠ هنديّ في ١٧ تموز من العام ١٩٨٢ على يد قوات غواتيماليّةٍ كانت قد وصلتْ مشياً على الأقدام أو نُقِلتْ بطائرات الهيلوكوبتر (والفضل في ذلك يعود إلى الولايات المتحدة وإسرائيل اللتين زوّدتا تلك القواتِ بالمعدات الحربية وبالمستشارين) وقد قَتَلتْ هذه القواتُ كلَّ رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ في القرية، ما عدا ثلاثةَ رجالٍ تمكّنوا من الاختباء في الغابات (بحسب مقابلات أعدّها للصحافة قسسٌ كاثوليكيون)(٤). وفي كل الحالات التي أوردناها لم يظهر أيُّ ردِّ فعلٍ [في الغرب] جدير بالذّكر!.

إنّ الرسالة لواضحةٌ بما يكفي. فلقد خرقَتْ إسرائيل قاعدةً رئيسيةً من الآداب («الإتيكيت») الدوليّة، وهي أنّك إذا عَزَمتَ على القتل الجماعي، فافعلْ ذلك حين لا يكون في الجوار الكثيرُ من المراسلين الصحفيين، أو حين تكون مكاتبُ تحرير المعلّقين السياسيين في صحف الوطن على درايةٍ بفضائل الصمت. عندما تتحدث إسرائيل عن نفاق الغرب، فإن لديها قضيةً مُقْنعةً؛ وهذا ينطبق على ردّ الفعل السوفييتي حين نفذّت القواتُ الروسية مذابحَ في أفغانستان متى شاءتْ، أو ردِّ فعل الأنظمة العربية حين تكون أيديها ملطخةً بدماء شعوبها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ايران الخمينيّة. وليستْ هناك حاجة إلى قول المزيد.

---

١ ـ Ibid.

٢ ـ Chomsky & Herman, **Political Economy of Human Rights**, vol. 1, p.363(...)

٣ ـ **Guardian** (NewYork), Sep 22, 1982.

٤ ـ UPI, Los Angeles, Oct 14, 1982.

استقرتِ الروايةُ أخيراً، كما لاحظنا، على أنّ ما بين ١٠٠ إلى ١٥٠ من رجال الميليشيات قد أُرسِلوا إلى المخيمات لاجتثاث ٢٠٠٠ من الإرهابيين الفلسطينيين المسلّحين بشدة، وأنّه جرى تبديل وحدات الكتائبيين يوم الجمعة بعد الظهر من أجل إتمام المهمة. وأما في ما يتعلق بتكوين تلك القوات، فهناك خلاف على هذا الأمر، لكون كلّ الجهات أصرّتْ على عدم تورُّطها. كانت القوات مكونةً أساساً من الكتائبيين، وهناك القليل من الشك في ذلك، ومعهم بعضٌ من قوات حدّاد، التي ربما وصلتْ إلى ثلث القوة المهاجمة أو ربعها، رغم أنّ التقارير تتفاوت في هذه المسألة؛ كما أنّ إسرائيل أصرّت مراراً وتكراراً على أن تلك القوات، التي هي جزء من الجيش الإسرائيلي في واقع الأمر، لم تكن متورطةً.

لقد زعمت المصادرُ الإسرائيلية أنّ قوات الكتائب كانت بقيادة إيلي حبيقة، وهو الضابط المسؤول عن استخبارات الكتائب «وسبق أن قاد ما يسمى بكتيبة الدامور، وهي وحدةُ استطلاع كانت قد قتلتْ فلسطينيين ثأراً لمقتل آلاف من اللبنانيين المسيحيين في بلدة الدامور الواقعة إلى الجنوب من بيروت، في العام ١٩٧٦»(١). ولقد ظهر أنّ رقم الآلاف الوارد في العبارة السابقة هو من ابتكار الدعاية الإسرائيلية*. وعيَّنَ دايفيد شيبلر من صحيفة **نيويورك تايمز** هويةَ حبيقة بناءً على مصادر لبنانية وإسرائيلية، فوصفه بأنّه مهندس مذبحة تل الزعتر، وأنّه «استجمع وحدةً من القوات الخاصة، ومن ضمنهم أعضاءُ سابقون من لواء الدامور الذي يحوي مسيحيين قُتلتْ عائلاتُهُمْ في الدامور فصمَّمُوا على الانتقام». وأفاد شيبلر أنّ الموساد الإسرائيلي والمخابرات المركزية الأميركية (C.I.A) تعرف حبيقة معرفةً تامةً(٢). وأمّا تحقيق محطة الأخبار التلفزيونية ABC، فقد أورد أنّ ثلاثة من قادةِ الكتائب «يتحملون مسؤوليةً مباشرةً عن المذبحة»: وهم فادي فرام وهو من القادة العسكريين للكتائب؛ وحبيقة وهو المسؤول عن الأمن والاستخبارات العسكرية في الكتائب؛ وجوزيف إدّه وهو قائد الوحدات الخاصة في الكتائب. [ويتابع التقرير:] «ومن بين فصائل الكتائب المسؤولة عن

يغضب الأميركيون على الإسرائيليين علناً، ولكنّهم يُعْلمونهم في جلسات خاصة بمواصلة ما كانوا يفعلونه

المذبحة، لعلّ أولئك القادمين من خرائب بلدة الدامور المسيحية هم الأشد حقداً»(٣). أما لورن جنكنز من صحيفة **واشنطن بوست** فقد استنتجتْ أنّ المسؤول الرئيسي هو حبيقة «أداة الاتصال الرئيسية بين القوات اللبنانية والاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) والمخابرات المركزية الأميركية أيضاً». واستنتجت كذلك أنّه، إلى جانب وحدات الأمن الخاصة بقيادة حبيقة، «كان هناك أيضاً حفنة من الرجال ظهر أنهم ينتمون إلى ميليشيا سعد حدّاد»(٤). ومعروف عن فرام وحبيقة أنهما قائدا الجناح الأكثر تأييداً لإسرائيل في «القوات اللبنانية». ويقدِّم توماس فريدمان أدلةً متعددةً يستنتج منها أنّ قوات حدّاد كانت متورطة إلى جانب الكتائب(٥).

عزا النّاجون عمليات القتل إلى قوات حدّاد أساساً. و«أصرَّ» كلُّ اللاجئين الذين قابَلَتْهُم صحيفة **كريستشنْ ساينْس مونيتور** «على أنّ المذبحة قد نُفِّذَتْ على يد قوات الرائد سعد حدّاد»(٦). كما أوردتْ مصادرُ أخرى كثيرةٌ، ومن ضمنها وزارةُ الخارجية الأميركية والجنرال شارون، خبرَ مشاركة قوات حدّاد في المجازر مشاركةً مباشرة، وشهد شارون أمام «لجنة التحقيق» بأن قوات حدّاد «ارتكبتْ أعمالَ قتلٍ أو أنها آذتِ السكّانَ»(٧) في المخيمَيْن، وأنّ واحداً من رجال ميليشيا حدّاد قُتل كما أُسر اثنان آخران من قبل وحدةٍ من المظليين الإسرائيليين خارج المخيمَيْن(٨). وصوَّر فريقٌ تلفزيونيٌّ دانيماركيٌّ عناصر ميليشيا يرتدون الملابس العسكرية لقوات حدّاد يومَ الجمعة خارج مخيم شاتيلا، وكانوا يمنعون النساء من مغادرة المخيم، ويجمعونهن في سيارات نقل، ويعتقلون جنودَ الجيش اللبناني النظاميين الذين كانوا يقتربون من المخيم(٩). وادّعى سكّانُ المخيمين

---

١ ـ Eric Silver, Jerusalem, **Manchester Guardian Weekly**, Oct 3, 1982(...)

* ـ أورد الكولونيل أرميا في كتابه: **يوميات الحرب** أنّ رقم القتلى هو ٢٥٠. (المؤلف)

٢ ـ **NYT**, Oct 18, 1982.

٣ ـ ABC News, Op. cit.

٤ ـ **WP - BG**, Sep 30, 1982.

٥ ـ **NYT**, Sep 26, 1982.

٦ ـ **CSM**, Sep 20, 1982.

٧ ـ Bernard Gwertzman, **NYT**, Sep 19.

٨ ـ Sharon Testimony, **NYT**, Oct 26, 1982.

٩ ـ **NYT**, Sep 23, 1982.

الذين كانوا قد اقتيدوا إلى «المدينة الرياضية» القريبة أنّ عناصر من ميليشيا حدّاد استجوبوهم. ثمّ إنّ ضابطاً من الجيش اللبناني، وكان في موقع مشرف على المخيمَيْن، عيَّنَ هويّة قوات حدّاد فيهما. وكذلك فعل جرّاحٌ نرويجيٌّ في مستشفى غزة كان قد عمل سابقاً في الجنوب ويعرف الفرقَ ما بين الكتائب وقوات حدّاد. كما أنّ مستخدمين طبيّين آخرين في المستشفى أكّدوا أنّ رجال ميليشيا حدّاد هم الذين أمروهم بمغادرة المستشفى. وميَّزتْ فتاةٌ شيعيةٌ ترقد في مستشفى عكا هويّةَ أحد رجال حدّاد، وهو أصلاً من قريتها في جنوب لبنان. وقال العشرات من الناجين إنّ رجال الميليشيا كانوا يتحدثون بلكنةِ جنوبِ لبنان، وكانوا يستعملون أسماء إسلاميةً شيعيةً شائعةً (هناك القليل جداً، أو أنه لا يوجد على الإطلاق، شيعةٌ في القوات الكتائبيّة، في حين أنّ ما يقارب نصف قوات حدّاد هم من الشيعة الجنوبيين). وأورد دايفيد لام (Lamb) وآخرون أنّ لاجئين مرعوبين كانوا يصرخون: «حدّاد عائد» عندما سرتْ شائعاتٌ تُفيد بأنّ رجال الميليشيا سيعودون، وكانوا يرددون «الكلمةَ التي كانت مُرادفةً للموت بالنسبة إليهم: وهي 'حدّاد'». وأوردت التقاريرُ أنّ صبياً فلسطينياً أُجلِسَ في سيارةِ «لاند روفر» عسكريةٍ تابعةٍ لقوات حدّاد، وقد شُرِطَ [جُرِّح] خَدّاهُ بواسطةِ حربةٍ، وأُجبِرَ على «أن يُكرِّرَ جريمته: 'أنا فلسطيني'»، قبل أن يُقْتَل[1]. وروى قرويّون من قرى جنوبية خاضعةٍ لسيطرة سعد حدّاد أنّ «شاحناتٍ وسياراتٍ عسكريّة تحمل شارات ميليشيا حدّاد كانت قد أتتْ بأعداد كبيرة [إلى قرية]، ومن هناك كانت تتابع سيرها في طريق يخضع للسيطرة الإسرائيلية ويؤدي إلى مواقع للجيش الإسرائيلي» قرب المطار[2]. وكما أشرنا سابقاً، فقد أنكرتْ إسرائيل مشاركةَ قوات حدّاد وادّعت أن أيّاً من أفرادها لم يكن «في منطقة بيروت»، في حين أفاد المراسلُ العسكريُّ للتلفزيون الإسرائيلي بأنّ القتلة الكتائبيين قد ارتدوا الملابسَ العسكرية لقوات حدّاد لكي يُخفوا هوياتهم. وكذلك أنكر رئيس هيئة الأركان، إيتان، أنْ تكون هذه القوات متورطة[3]. وسنتحدث لاحقاً [في الكتاب] عن تأويل «لجنة التحقيق» [الإسرائيلية] للأدلّة على مشاركة قوات حدّاد في المجازر، والأدلة التي أوردناها الان هي عبارة عن عيناتٍ صغيرة فقط.

قد لا تُعرَفُ الحقيقةُ الكاملةُ قطُّ، لكنّ الأمر الواضح هو أنّ الفظائع ارتُكبتْ من قبل رجالِ ميليشيا أُحضروا بواسطة

---

١ ـ David Lamb, **LAT**, Sep 21, 1982.

٢ ـ Jenkins, **Washington Post**, Sep 20, 1982.

٣ ـ Shipler, **NYT**, Sep 20, 1982.

إسرائيل، وأنّ رجال الميليشيا هؤلاء كان لهم «تاريخٌ موثّق جداً من الفظائع ضد المدنيين الفلسطينيين» ـ وهذه حقيقة تثير «التساؤل» كما سلّم بذلك العسكريُّ الإسرائيليُّ اللّواء أمير دروري.

وأما التكوينُ الدقيق لتلك القوات، فيكاد أن يكون غير ذي دلالةٍ هامة على الإطلاق. وقد علّق دايڤيد بيرنستاين في صحيفة **جيروسالم پوست** [أيلول ٢١] بالقول: «إنّ هذا السؤال، في التحليل النهائي للأمور، لَهُوَ غير ذي صلة بموضوعنا، إذ إنّ كلاً من حدّاد والكتائب من صنع إسرائيل، لكون الطرفيْن قد سُلِّحا ودُرِّبا خلال السنوات الثماني الماضية بواسطة جيش الدفاع الإسرائيلي». وأما أنهما كانا تحت سيطرة جيش الدفاع الإسرائيلي عندما نُظِّما لدخول المخيميْن، وأنّهما كانا تحت مراقبة هذا الجيش عندما كانت العمليةُ قيد التنفيذ، فذلك كلُّهُ ممّا لا يتطرق إليه الشكّ.

لكنْ لم يكن الجميعُ مقتنعين بذلك. فقد أوحتْ بعض الصحف الإسرائيلية بروايةٍ مختلفة بعضَ الشيء عمّا حدث. فنشرت صحيفةُ حزب العمل، **داڤار**، تقريراً في ٥ تشرين الثاني تحت عنوان: «نُظِّمت المذبحةُ في مخيمَي اللاجئين من قبل كي.جي.بي [المخابرات السوفييتية] لكي تُقْنع العالمَ بذنب إسرائيل»! وقد أعدّ التقريرَ مراسلُ صحيفة **داڤار** في باريس، جيدون كوتز، مستنداً إلى كتاب جديد مشوِّقٍ كان قد صدر للتوّ في باريس، وإلى مقابلةٍ مع مؤلِّفة الكتاب وهي «مؤرِّخة وصحفيةٌ يهوديةٌ مشهورة» تدعى آني كريغل. وقد شرحَتْ له هذه المؤلفة نظريتها، وهي أنّ عمليات القتل في المخيمين كانت قد نُظِّمتْ بواسطة كي.جي.بي. (الذين كانوا مسؤولين أيضاً عن اغتيال بشير الجميّل [بحسب زعمها])، وقد نُفِّذ القتلُ بواسطة إرهابيين من ألمانيا مرتبطين بمنظمة التحرير الفلسطينية. كما أنّ وكالات المخابرات الأميركية هي على دراية بكل ذلك، لكنّها تلتزم الصمت لأنها مهتمةٌ بالإطاحة بحكومة بيغن وإخراج القوات الإسرائيلية من بيروت. وهدف المذابح التي نظمتها المخابرات السوفييتية واضح؛ فلقد افترضت هذه المخابراتُ ـ بحقّ ـ أنّ اللوم سوف يُوجَّه إلى إسرائيل. وكل هذا [بحسب كريغل] هو جزء من الالتزام السوفييتي العام برعاية الإرهاب الدوليّ وبتقويض إسرائيل؛ وهو برنامج ساعدهم فيه المتعلمون [المثقفون] في الدول الديموقراطية الذين (بحسب ما كتبت المؤلفة في كتابها) «تخلّوا عن كل إمكاناتهم في المقاومة الروحية والثقافية» في وجه «العدوان اللفظي» الهادف إلى تدمير إسرائيل. ومن ضمن هذا العدوان حملةُ «التهويل» و«التضليل الإعلامي» الموجَّهة من قبل الاتحاد السوفييتي، وهي حملةٌ تتّخذ «أبعادَ حربٍ نفسيةٍ حقيقية» شُنَّتْ ضد إسرائيل في صيف العام ١٩٨٢!

والحقّ أنّ كريغل، بالإضافة إلى «مؤهلاتها» التي أشرنا إليها للتوّ، كانت ذا منصبٍ عالٍ في الحزب الشيوعي الفرنسي الذي انشقَّتْ عنه مؤخّراً، وكانت معروفةً بولائها للخطّ المتشدّد في الحزب، ثم قامت بتلك الخطوة المألوفة والمفهومة من الناحية العقائدية: وهي التحوّل السهل إلى أقصى اليمين. وقد أوردتْ صحيفة **داڤار** أنّ كتابها قد نُشر بأقصى سرعةٍ على يد الناشر الفرنسي المعروف لافون «والفضل في ذلك يرجع إلى الأصل اليهودي» للناشرين، بوصفِ هذا العمل «واجباً قومياً».

علينا أن نُذكِّر هنا بأنّ دراسة كريغل المؤثِّرة هذه هي التي أقنعتِ المدير العام لـ «دائرة المعلومات في المنظمة الصهيونيّة العالمية» بأنّ وسائل الإعلام قد خُدِعتْ بواسطة القوّة الجبّارة لوكالة «وفا» الإعلامية [وكالة الأنباء الفلسطينية] والمؤامرة الشيوعية الدولية. وأما الكتاب في حدّ ذاته، فقد لا يكون مفيداً إلاّ لأولئك الذين يجدون تسليةً بآخر تهريجات مثقفي باريس. ولعلّ الأكثر تشويقاً هو أنّ الكتاب قد أُخِذَ على محمل الجد في إسرائيل، رغم أنّ الإسرائيليين كانوا من الواقعية بحيث أنهم لم يستعملوا هذه المادة الفاتنة في الدعاية الموجهة إلى الجمهور الأميركي.

مَنْ المسؤول؟
خلفيات التحقيق

عندما وصلتِ التقاريرُ عن المذبحة إلى العالم الخارجي، أنكرَتْ إسرائيل أيَّ علم لها بما حدث، ثم سرعان ما أُسقط هذا الادّعاء واستُبدِل بإنكارٍ شديدٍ لأيّ مسؤولية عمّا حدث. وقد أُعْلِنَ الموقفُ الرسميُّ للحكومة الإسرائيلية في ١٩ أيلول، وظهر في عدة صحف أميركية على شكل إعلان بحجم صفحة كاملة. وكان عنوان الإعلان «تشهير الدماء»*، وهو إشارة إلى التحريض اللاسامي التقليدي. وإنّ اتهام منتقدي إسرائيل باللاسامية لهُوَ ردُّ فعلٍ تلقائيٌّ، وهو إجراء [إسرائيلي] أثبت فاعليته في حَرْف أيّ نقاش عقلاني لهذه الأمور [عن وجهته الصحيحة].

ولاحقاً ذهبت التصريحاتُ الإسرائيلية الرسميةُ إلى التأكيد على أنّه «لم يكن هناك أيُّ موقع للجيش الإسرائيلي» في المنطقة التي «دخلتْ منها وحدةٌ لبنانية إلى مخيمٍ للاجئين

* ـ "Blood Libel": عبارة تشير إلى الشائعات التحريضية التي أطلقها بعض مرتكبي الجرائم بحق اليهود في روسيا القيصرية وأوروبا في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، ومفادها أنّ اليهود يستخدمون دماءَ الأطفال المسيحيين في عباداتهم وطقوسهم. (المترجم)

انسحبت القوات الأميركية قبل أسبوعين من انتهاء فترة تفويضها الأصلية، فوقعت المجازر

للقبض على الإرهابيين المختبئين هناك». وادّعت التصريحات كذلك أنه «ما إنْ علم الجيش الإسرائيلي بالأحداث المأساوية حتى أوقف الجنود الإسرائيليون المذبحةَ وأجبروا الوحدة [الميليشيات] اللبنانية على إخلاء المخيم». غير أنَّه تم التخلّي بصمت عن هذه الأكاذيب المخزية فيما بعد. ولكنّ الادعاء الثاني لا يتعارض فقط مع الشهادات العيانية لعدد كبير من المراسلين الصحفيين، بل يتعارض أيضاً مع الشهادة المباشرة(١) التي أدلى بها الجنرال شارون في الكنيست بعد ذلك بأيام قليلة كما أشرنا سابقاً. فلقد دخل الجيشُ صبرا [بحسب زعم شارون] بعد وقت طويل من توقّف عمليات القتل، ولم يدخل شاتيلا على الإطلاق، و«التدخُّل» الوحيد المزعوم الذي استشهد به شارون كان إعطاءَ أمرٍ في يوم الجمعة لضابط الارتباط في الكتائب بوقف القتل. ولكن حتى لو كان بإمكان المرء تصديق تصريح شارون، فإن هذا التصريح يعمّق مسؤولية جيش الدفاع الإسرائيلي، إذ هَنَّأ رئيسُ هيئة الأركان [إيتان] في اجتماع لاحق ذلك اليومَ رجالَ الكتائب على «صنيعهم الجيد» وأعادهم إلى المخيمَيْن لإتمامه. وأما بالنسبة إلى الادعاء الأول بأنه لم يكن هناك موقع للجيش الإسرائيلي في المنطقة التي كانت محاطةً تماماً بجنود جيش الدفاع ـ الذين لم يكن باستطاعتهم مراقبةُ ما كان يحدث فحسب، بل كانوا أيضاً من القرب بحيث «لا بد أن يكونوا قد سمعوا طوال الليل صرخاتِ المذبوحين»(٢) ـــ، فإنّ الأمر لا يحتاج إلى أيّ تعليق. وفيما بعد تظاهر الإسرائيليون لفترة قصيرة بأنّ المخيمين كانا محاصرين جزئياً فقط من قبل جيش الدفاع الإسرائيلي، وأنّ رجال الميليشيا لا بدّ أن يكونوا قد دخلوا، من دون علم جيش الدفاع، من القطاع الشرقيّ غير الخاضع للمراقبة. ولكن هذا الادعاء أُسقط هو الآخر عندما أوردت الصحفُ، ومن ضمنها الصحفُ الإسرائيليةُ، حقائقَ مناقضةً، بل استُشْهِدتْ بتصريحاتٍ رسميةٍ سابقةٍ لجيش الدفاع الإسرائيلي تقول بأنّ المخيمين كانا محاصرَيْن تماماً(٣). وبعد فترة قصيرة تم التخلي عن كل هذه السلسلة من الادعاءات لأنه لا يمكن إسنادُها في وجه الأدلة المُضادة الهائلة. وبعيداً عن بعض الصحف التي رفضتِ التسليمَ بالوقائع، وعن ستالينيّي باريس السابقين الذين كانوا يؤدّون «واجبَهم القوميّ»، فإنّ الحقائقَ الأساسية ما لبثت أن غدت لا خلاف عليها.

أثار رفضُ حكومة بيغن إجراءَ تحقيقٍ كاملٍ ومستقلٍّ الغضبَ من جديد. واتهم شارون في شهادته أمامَ الكنيست حزبَ العمل المعارضَ بأنه يدعو إلى إجراء تحقيقٍ من باب المحاكمة السياسية [لحزب الليكود] لا غير. والحق أنّ نظرةً إلى نقد حزب العمل من شأنها أن تؤكد حكم شارون. فقد حدَّد زعيمُ حزب العمل شمعون بيريز دعوته إلى إجراء تحقيق، في خطابه أمام الكنيست في اليوم نفسه، بالعبارات التالية:

> باسم وحدة الأمّة، ادعو اعضاءَ هذا المجلس كافةً إلى أن يستثنوا قوات الدفاع الإسرائيلية من هذا الجدال. دعونا نترك أبناءنا الذين يخدمون أمّتهم بإخلاصٍ وشأنَهُم. علينا ألاّ نشمل [بلَوْمِنا] هذه المؤسسةَ العظيمةَ والهامةَ التي تنفذ الأوامر والتي لا لوم عليها بمجملها. دعونا نتركهم خارج هذا الجدال السياسي الشاق. إننا على ثقة بأنّ قوات الدفاع الإسرائيلية لم تساعدْ أحداً في سفك الدماء هذا.

وباختصار، فإنّ «التحقيق الكامل المستقل» الذي كانت المعارضة الإسرائيلية العماليةُ تدعو إليه بحسب الصحافة الأميركية إنّما كان لغرض استثناء جيش الدفاع الإسرائيلي، الذي يقع خارج اللوم سَلَفاً، ولغرض حصر التحقيق بـ «الجدل السياسي»، أي بدور حكومة الليكود [في المجازر]. إنّ تحقيقاً يستثني دور جيش الدفاع الإسرائيلي في تنظيم الميليشيات، وفي إرسالها إلى المخيمين المحاصرين من قبل هذا الجيش نفسه، الذي وقف مكتوف اليدين، شأنه في ذلك شأن شرطة القيصر، في الوقت الذي كان فيه رجالُ الميليشيا يقومون بالعمل، هذا التحقيق لن يكون تحقيقاً على الإطلاق، وإنما سيكون عبارةً عن مسعى لتسجيل نقاط سياسية ضد الليكود فحسب. وفي غضون عدة أيام من ذلك أُزيحتْ جانباً معارضةُ كلّ من حزْبي العمل والليكود لإجْراء تحقيق جدّي، بفعل الأحداث السياسية التي جرت في إسرائيل، وتشكّلتْ لجنةُ التحقيق التي ترأسها رئيسُ السلطة القضائية إسحاق كاهان(...).

لاحظْ أنّ القضية لم تكن ما إذا كان جيشُ الدفاع الإسرائيلي متورِّطاً في المذبحة أمْ لا، إذ لم تُصَدِّق التقاريرُ التي كانت تأتي من لبنان بين الفينة والأخرى والتي أوْحَتْ بأنّ الجنود الإسرائيليين قد شاركوا فعلاً. ومع هذا فإنّ

---

١ ـ NYT, Sep 23, 1982.

٢ ـ Yehuda Litani, **Ha'aretz**, Sep 21, 1982.

٣ ـ Avraham Tal, **Ha'aretz**, Sep 20, 1982.

تبريرياً معروفاً ـ هو مارتن بيريتز ـ ادعى العكس وصرّح: «إنني أستاءُ من الحيوية التي سارع بها بعضُ الناس إلى ترتيب الوقائع كي يَظْهر أنّ الإسرائيليين هم الذين قاموا بالقتل لا المسيحيين»[1]. إنها لوسيلة نافعة دائماً أن تختلق في الأوضاع الحرجة خصماً يَسْهل تفنيدُهُ، كما هي الحال عندما «يُفَنِّد» منتقدو التحريفات العقائديّة السُّننية [الأرثوذوكسيّة] بدعوى تأييدهم للشيوعية، أو عندما يُصرف النظرُ عن معارضي تَعزيز الأسلحة الاستراتيجيّة بحجج تعادي «وقفَ التسلّح من جانب واحد». ولكنّ الشروط التي حاول حزبُ العمل فرضَها على التحقيق تجاوزتْ بكثيرٍ اللاقضيَّة [أو القضيةَ التافهةَ] التي أثارها مارتن بيريتز، وتلك حقيقةٌ تجوهلتْ في معمعة الغضب الذي تركّزَ على بيغن وشارون [وحدهما].

التُّهَم

ألقتِ الحكومةُ الإسرائيليةُ بالمسؤولية عن المذبحة على عاتق الكتائب. وزعم شارون في شهادته أمام الكنيست أنّ إسرائيل لا تستطيع «اختيار جيرانها في الشرق الأوسط»؛ فإذا كانوا متوحشين فهذا ليس ذنبَ إسرائيل! وقد عبّر بيغن عن ذلك بتصريح كَثُرَ تداولُه: «أغيارٌ يقتلون أغياراً، ثم يأتون من فورهم لشنق اليهود»[2]؛ وتلك علامةٌ أخرى على لاسامية الرأي العام العالمي التي يتعذّر استئصالُها. وألقتْ حكومةُ الولايات المتحدة بالمسؤولية على الميليشيات المسيحية، وخصّتْ إسرائيلَ بمسؤوليةٍ غير مباشرةٍ لإخفاقها في اتّخاذِ إجراءاتٍ كافيةٍ لمنع المذبحة. وأمّا المعارضة العمالية فقد وجّهت اللوم إلى بيغن وشارون؛ وكذلك أسرع الأميركيون الداعمون لإسرائيل بتوجيه اللوم إلى بيغن وشارون اللذيْن «شوّها» صورةَ «إسرائيل الجميلة» التي كانت في السنوات السابقة. وأنْحَتِ الدولُ العربيةُ ومنظمةُ التحرير الفلسطينية باللائمة على الولايات المتحدة، فاعتبرتها مسؤولةً بشكلٍ مباشر عن أعمال اسرائيل، وشريكاً فعلياً فيها. وقد سبق أن تحدّثنا عن جهود الحكومة الإسرائيلية لتبرئة نفسها من أفعال قَتَلَتها المأجورين، وأمّا التُّهم الأخرى فتستحق مزيداً من التَّفحُّص.

ولكنْ قبل أن نشرع في ذلك، يجدر بنا أن نلاحظ أنّ لكلّ تهمةٍ من هذه التُّهم هدفاً واضحاً. فتجمع «العمل» كان يأمل في إسقاط الاعتبار عن حكومة الليكود، وكانت التظاهرةُ الضخمة التي حدثتْ بعد المذبحة هي التظاهرة الأولى التي يدعمها حزبُ العمل الذي كان قد التزم الصمتَ خلال المذابح

إسرائيل وأميركا وحدهما، وفي مواجهة العالم بأكمله، رفضتا استنكار المذبحة

الأسبق، ما عدا الاستثناءات التي تحدثنا عنها [في مكان آخر من الكتاب]. أما مؤيّدو إسرائيل الذين سبق أن راقبوا بصمتٍ فظائعَ شبيهةً أو أسوأ في الماضي، مُنحين باللائمة على الفلسطينيين حين كان هؤلاء يُقمَعون أو يُذْبحون(!)، فقد كان عليهم إيجادُ طريقةٍ لتبرير ممارساتهم الطويلة التي ساعدتْ في تشييد أسس هذا العمل الفظيع والظاهر للعيان بصورةٍ استثنائية [المقصود: مجزرة صبرا وشاتيلا]، علماً أننا نؤكّد، من جديد، أنّه عملٌ لا يقارَن من ناحية الحجم بذبح المدنيين بواسطة القصف الإسرائيلي للأهداف المدنية العزلاء في مخيميْ صبرا وشاتيلا وفي أماكن أخرى **قبل** وقوع المجزرة فيهما بأسابيع قليلة. وأمّا الحكومة الأميركية فأملَتْ في أنّه إذا أُعيد حزبُ العمل إلى السلطة وأَمْكَنَ تطويعُ الدول العربية، فقد ينجح ريغان في فرض المخطط الأميركي للمنطقة، ومن ضمن ذلك «خطة السلام» التي ناقشناها [في موضع آخر من الكتاب](...).

وأما في ما يتعلّق بالاتهامات التي وجهتها الدول العربية ومنظمة التحرير [إلى الولايات المتحدة محمّلةً إياها مسؤوليةً مباشرة عن المذابح...]، فهي هنا أقرب إلى إصابة الهدف، بالرغم من أنّ سماع هذا لا يريح أحداً هنا [في الولايات المتحدة].

«وضع أفعى في مهد طفل»: الولايات المتحدة وتعهُّداتها

المتبقّون من [المدنيين] العُزَّل

لننظر أخيراً إلى التّهمة الأخيرة في سلسلة التّهم الواردة أعلاه: وهي تهمة اشتراك الولايات المتحدة في الجريمة. ولنتذكرْ شعورَ المعارضة الإسرائيلية العمالية أثناء الحرب نفسها، وهو أنه لم يكن باستطاعتها فعلُ شيء بعد أن أعطتِ الولايات المتحدةُ «ضوءاً أخضر» للاجتياح الإسرائيلي [الليكودي للبنان في حزيران ٨٢][3]. لقد كان ردُّ الفعل الأوّلُ للولايات المتحدة على دخول إسرائيل إلى بيروت الغربية رداً ملطّفاً. فقد أحجم المتحدّثون باسم البيت الأبيض عن شجب هذا التحرّك ووصفوه بأنّه «محدود

١ ـ NYT, Sep 22, 1982.
٢ ـ Shipler, NYT, Sep 24, 1982.
٣ ـ Gwertzman, NYT, Sep 16.

ووقائي»، و«عبّرتْ مصادرُ إسرائيليةٌ ديبلوماسية عن ارتياحها ليلةَ أمس لردّ الفعل الأمريكي المعتدل على التحرّك الإسرائيلي إلى بيروت الغربية»[١]، وهو ما يشكّل خرقاً لاتفاقية «حبيب» ولتعهدات الولايات المتحدة للبنانيين والفلسطينيين. «وبالرغم من الاستجواب المتواصل فقد امتنع المسؤولون الأميركيون الرسميون عن انتقاد تحرّك القوات الإسرائيلية إلى بيروت الغربية وعن المطالبة بانسحابها السريع»[٢]. بل إنّ الرئيس الأميركي أوضح أنّ «ما دفع [إسرائيل] إلى العودة [كذا] قد كان الهجومَ الذي حصل بعد اغتيال الرئيس المنتخب، والذي شنّته بعضُ الميليشيات اليسارية التي بقيتْ في بيروت الغربية». إنّ ما أورده ريغان من «تبريرات للتحرّك الإسرائيلي قد أذهل المسؤولين في واشنطن»، فعلّقوا في مجالسهم الخاصة بأنّ الإسرائيليين أنفسهم لم يدّعوا هذا الادعاء، مع أنّ المسؤول الإعلامي في البيت الأبيض، لاري سپيكس، استحضَرَ بضعة «ادعاءات شخصية» من قبل الإسرائيليين، ومفادُها أنهم «قد استُفِزُّوا» من إطلاق نيرانِ «بعض اليساريين [اللبنانيين]»[٣]. من الممكن أن يتعاطف المرءُ مع الموظفين الرسميين الذين ينحصر عملهم في التغطية على تخمينات الرئيس العشوائية المتعددة! وصرف ريغان النظر أيضاً عن الأسئلة المتعلقة بالاحتلال الإسرائيلي الجزئيّ للسفارة السوفييتية في بيروت (قائلاً: «أوه، أنتم تعرفون الروس؛ لا يمكن تصديقُ أيّ شيء يقولونه»)[٤].

لقد أكّد المسؤولون الإسرائيليون أنّ وجهةَ نظر الولايات المتحدة المعْلَنة في المجالس الخاصّة [مع الإسرائيليين] «طلبتْ من اسرائيل مطالبَ أقلّ كثيراً من البيان الذين أعلنته الولايات المتحدة يوم الخميس والذي يتّهم إسرائيل بخرق الاتفاقية التي انسحبتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية من بيروت الغربية بموجبها». وقد عبّر أولئك المسؤولون الإسرائيليون عن غضبهم من البيان الرسمي الذي «أتى بعد ساعات فقط من موقف أميركي أكثر 'تفهُّماً' بكثير كان قد عَرَضَه السيد درايپر في جلسةٍ خاصّة». [وكتب دايڤيد شيپلر:] «إنّ الإسرائيليين يؤمنون بصلابةٍ بأنّ الرأي الذين أعلنه الأميركيون في الجلسة الخاصّة هو الرأي الأصيل»، وأنّ «البيان الرسميّ المتشدد» هو للاستعراض «بسبب الضغوط العربية»[٥]. والحق أن التأويل الإسرائيلي ليس غير قابلٍ للتصديق على الإطلاق؛ فلقد رأينا النمط ذاته يتكرر في ما يتعلق بمسألة الاستيطان في المناطق المحتلة، وباجتياح لبنان، وبالتصعيد الحادّ للهجوم على بيروت الغربية في آب ٨٢. لقد آمن الإسرائيليون دائماً ـ وليس إيمانُهم هذا لاعقلانياً، إذا نظرنا إلى الحقائق المحسوسة للدعم الديبلوماسي والمادي [الأميركي] ـ أنه أيّاً يكن الغَضَبُ الأميركيُّ المُعْلَنُ على سبيل الاستعراض، فإنهم [الإسرائيليين] يُعْلَمُون في جلسات خاصّة بمواصلة ما كانوا يفعلونه.

كان ردُّ الفعل الرسمي للولايات المتحدة على المذبحة ردّاً متحفظاً أيضاً. فبعد أن انتشرتِ التقاريرُ عن المذبحة حمّلَ المسؤولون الأميريكيون إسرائيلَ «مسؤوليةً غير مباشرة» لإخفاقها في وقف المذبحة. كما أنّ التصريح الرسمي للرئيس اكتفى بالإشارة إلى أنّ وحدات الجيش اللبناني قد «عُرقِلتْ» في جهودها لفرض السيطرة «بسبب الاحتلال الإسرائيلي الذي كان قد جرى يومَ الأربعاء»[٦]. ووجّه اللومُ إلى إسرائيل لإخفاقها في منع حدوث المأساة، لا لدورها في تنفيذها. وفي الأمم المتحدة وقفتِ الولايات المتحدةُ وحدها إلى جانب إسرائيل ضدّ العالم بكامله، في رفضها استنكارَ المذبحة.

إنّ غَدْر الولايات المتحدة في هذهِ القضية لهو أعمق كثيراً في واقع الأمر. فأثناء مفاوضات «حبيب» أعطتِ الولاياتُ المتحدةُ تطمينات واضحةً للّبنانيين والفلسطينيين بأنّ سلامة الفلسطينيين ستكون مضمونةً بعد مغادرة مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية. وكتب حبيب لرئيس الوزراء اللبناني [شفيق الوزّان]: «إنّ حكومتي ستبذل قصارى جهدها لكي تَضْمن أنّ تلك التطمينات [من جانب إسرائيل] سَيُتَقيّد بها بشكل دقيقٍ [وجادّ]». ويلاحظ ميلتون ڤيورْست، مستشهداً برسائل حبيب، أنّ التعهدات الأميركية «كانت حاسمةً في ضمان موافقة منظمة التحرير الفلسطينية على مغادرة بيروت» تاركةً السكّان المدنيين من غير حماية[٧]. وكان الكسندر كوكبورن قد استَشْهد بالاتفاقية من قبلُ:

---

١ ـ Yuval Elizur, **BG**, Sep 16.

٢ ـ John M Goshko, **WP - BG**, Sep 16, 1982.

٣ ـ Gwertzman, **NYT**, Sep 18.

٤ ـ Curtis Wilkie, **BG**, Sep 18, 1982.

٥ ـ **NYT**, Sep 18, 1982.

٦ ـ **NYT**, Sep 19, 1982.

٧ ـ **WP**, Dec 19, 1982.

إنّ حكومتَيْ لبنان والولايات المتحدة ستقدِّمان ضمانات مناسبةً لأمن الفلسطينيين، من غير المقاتلين الذين يلتزمون حكمَ القانون، وممَّن تبقّوا في بيروت [بعد رحيل مقاتلي م.ت.ف.]، ومن ضمنهم عائلات أولئك الذين غادروا... إنّ الولايات المتحدة سوف تقدّم ضماناتها على أساس التأكيدات التي تلقّتها من حكومة إسرائيل ومن قادة جماعاتٍ لبنانيةٍ محدّدة لها اتصالٌ بها(١).

وكان هناك التزامٌ ضمنيٌّ بأنّ إسرائيل لن تدخل بيروت بعد الانسحاب السلمي لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لقد كان على قوات حفظ السلام الأميركية واجبٌ مزدوج: الإشرافُ على مغادرة منظمة التحرير وحماية السكان المدنيين، وذلك بناءً على الالتزام الأميركي الواضح. ولكن هذه القوات انسحبتْ بعد إتمام المهمة الأولى، أيْ قبل أسبوعين من انتهاء فترة تفويضها الأصلية؛ وهو ما أنهى عملياً الالتزامَ الدوليَّ بحماية المدنيين الذين بقوا تحت الخطر. ويورد التحقيقُ الذي قام به برنامج closeup لشبكة ABC التلفزيونية: «أنّ القوات المتعددة الجنسية ملتزمة بحماية المدنيين ثلاثين يوماً، ولكنّ الأميركيين يصرّون على مغادرة بيروت قبل أسبوعين من الوقت المحدد، الأمر الذي يُجبر الفرنسيين والإيطاليين على الانسحاب أيضاً». ويُعَيد ذلك تحرّك جيشُ الدفاع الإسرائيلي إلى بيروت وحدثتِ المذبحةُ. ويعلّق كوكبورن بالقول إنّ القتلة قد أُطلِقَ عليهم اسمُ «المدعومين من قبل اسرائيل»، ولكنْ «يجب أن يُطلق عليهم، وبالدقةِ ذاتها، اسمُ 'المُصرَّح لهم من قبل الولايات المتحدة' [أو 'المجازين أميركياً' U.S. - sanctioned]، إذ إنّ انقضاضهم على المخيمين لم يكن ممكناً إلا إذا ازْدَرَتِ الولاياتُ المتحدة ضماناً محدَّداً من الضمانات التي تعهَّدَتْ بها».

ولاحقاً أُعْلِم ڤيورست من وزارة الخارجية أنّ الولايات المتحدة «لم تسجّل رسميّاً احتجاجاً على الإطلاق، لا على احتلال بيروت ولا على ما حدث في شاتيلا وصبرا».

المزيد من الكلام عن «النفاق»

وبالعودة إلى تهمة «النفاق» التي رَمَتْ بها إسرائيلُ ردودَ الفعل الأميركية غير الرسميّة، فإنّ بمقدور المرء مرّةً أخرى إدراكَ جدارةِ هذه التهمة. فلقد شجّعَ ردُّ الفعل الأميركي الأوّلُ إسرائيلَ على التقدّم إلى بيروت الغربية، ولم يكن إلاّ من العقلانية توقُّعُ تنفيذ واحدٍ من إجراءاتِ شارون ما إن يصبح السّكان دون حماية بفعل العمليات العسكرية الإسرائيلية.

ولقد عبَّر عن هذه النقطة الجوهرية وبدقة كبيرة، ميرون بنڤينِسْتي، وهو النائب السابق لرئيس بلدية القدس(...). إذ يقول:

ما هو جيشنا إنْ لم يكن نتاج المساعدات الأميركية؟ ألم يعلن ريغان أنّ المستوطنات اليهودية في الضفّة الغربية «ليست مخالفةً للقانون» not illegal؟ ألم يُجِزْ الكسندر هايغ المرحلة الأولى من اجتياح إسرائيل للبنان؟ إنّ كل ما حدث في إسرائيل حتى الآن قد حملَ ختمَ الموافقة الأميركي، أو على الأقل احتملتْه حكوماتكم [الأميركية المتعاقبة]. وإذا كان المارد قد خرج من القمقم، فإنّ واشنطن هي التي ساعدت على إطلاقه(٢).

إنّ هذه الملاحظات لصائبةٌ تماماً. وهو يقول ـ بحق أيضاً ـ: «من المَكْر [والزَّلاقة] بمكانٍ القولُ بأنّ إسرائيل قد فقدتْ روحَها، ثمَّ الاكتفاءُ بهذا القول». إذْ لا يكفي الأميركيين أن يوجّهوا اللوم إلى الكتائب، أو إلى بيغن وشارون، أو إلى شركائهم الصامتين في تحالف حزب «العمل»، أو إلى التعنُّت والتوسع والقمع الإسرائيلي على مدار السنوات. فلولا الدعمُ الأميركي الحاسم [لإسرائيل] على كافة المستويات لكانت الأمور مختلفة تماماً؛ وذلك لا ينطبق على الأشهر القليلة الماضية [التي سبقت المجازر] فحسب. وباختصار، لا يمكن تضييقُ دائرة المسؤولية [عن المجازر] إلى ذلك الحدّ، ولو أراحَ هذا [بعضَ الأميركيين].

يكتب الكاتب الإسرائيلي عاموس ايلون في تعليقٍ له على المذبحة:

إنّ رجلاً يضع أفعى في مَهْدِ طفلٍ ويقول: «أنا آسف، لقد أخبرتُ الأفعى بألاّ تعض، أنا لم أكن أعلم بأن الأفاعي خطرة إلى هذا الحدّ»... إن هذا الرجل يستحيل فهمُهُ. إن هذا الرجل لهو مجرمُ حربٍ!(٣)

وهكذا يحكم إيلون بأن بيغن وشارون هما مجرما حرب؛ وهو ما حكم به عددٌ من المعلقين الإسرائيليين الآخرين. ولكنّ على النقاش أن يذهب إلى أبعد من ذلك: فماذا عن أولئك الذين أعطوا «ضوءاً أخضر» لإسرائيل عندما اجتاحتْ بيروتَ الغربيةَ، أو عندما اجتاحتْ لبنانَ أصلاً لكي «تطهِّر أعشاشَ الإرهابيين»؟ وماذا عن أولئك الذين صفّقوا لتلك المغامرات ولمغامراتٍ أسبق منها، أو التزموا الصمتَ حيالها؟ ألم يكونوا يعلمون بأن الأفاعي خطرة؟!

---

١ ـ **Village Voice**, Nov 9, 1982.

١ ـ **Newsweek**, Oct 4, 1982.

٢ ـ Cited by Shipler, **NYT**, Sep 27, 1982.

«المجرمون الرئيسيّون»

عندما حدثتْ مذبحةُ كيشينيف، وسّع تولستوي دائرةَ المسؤولية لتشمل «المجرمين الرئيسيين» بما قاموا به من «دعايةٍ كذبٍ وعنف». ولقد فعل أحدُ أشجع الصحفيين الإسرائيليين، وهو اوري أفنيري، الشيءَ ذاته، فكتب خلال قصف بيروت: «إنّ كلّ طفل يُقتل الآن في قصف بيروت، وكلّ طفل يُدفَنُ تحت أنقاض بيتٍ مقصوف، أنما يُقتل على يدِ صحفيّ إسرائيلي[1]». وإنّ مُحاجَجَتهُ العقلية لتنطبق على المسألة الحالية أيضاً [أي مجزرة المخيمَيْن]، وتنطبق أيضاً على الولايات المتحدة وبصورةٍ لا تقلّ عما هي عليه في إسرائيل ـ بل ربّما فاقَتْها هناك ـ؛ ذلك أنّ في إسرائيل العديد من الصحفيين البارزين الذين أوردوا الكثير من الوقائع التي غالباً ما أُخْفِيَت وشُوِّهَتْ هنا في الولايات المتحدة وعلى مدى سنوات عديدة. إنّ النقطة الجوهرية التي يشير إليها أفينري هي أنّ الفلسطينيين في إسرائيل يُجرَّدون من الصفات الإنسانية بشكل حثيث، كما هي الحال حين تعلن الصحفُ أنّ «أعشاش الإرهابيين قد ضُربتْ وقُصِفَتْ في بيروت» وهي [أي الصحف] تعلم أنّ هذا «كذب صُراح» وأنّ «القنابل أصابَت مدنيين من النساء والرجال والأطفال والشيوخ». ويقول أيضاً:

> ليس لدى الإرهابيين «أعشاش»، وإنما الحيوانات هي التي لها أعشاش، والعصافير أيضاً. الناس ـ سواء أكانوا أخياراً أم أشراراً ـ لهم بيوت ومكاتب ومقرّات.

إنّ «الخطيئة الأصلية» للصحافيين الإسرائيليين كانت تحديداً باستعمال كلمة «إرهابيين» (أو لنكن أكثر تدقيقاً المصطلح الجديد: 'ميهابليم'* الذي ابتُكِرَ لهذا الغرض) لكي تشمل «كلّ مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية» ولتشمل لاحقاً «كلّ أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية من دبلوماسيين ومعلمين وأطباء وممرضات في الهلال الأحمر الفلسطيني» ولتشمل أخيراً «الشعبَ الفلسطينيَّ بأكمله». وبهذا «فنحن نقصف مخيمات 'الإرهابيين'، وهذا يعني مخيماتِ اللاجئين الفلسطينيين التي قد يكون فيها مقاتلون يتبعون منظمة التحرير وقد لا يكون». وعندما تصبح مخيماتُ اللاجئين مخيماتِ «إرهابيين» يصبح من الممكن «قصفُها وترحيلُ من فيها وحرمانهم من إنسانيتهم... إنّ خرائب بيروت وجثث النساء والرجال والأطفال المدفونة تحتها، لتُشكّل نصباً تذكارياً» على هذه الممارسات الصحفية[2].

أثار الكاتب ا.ب. يهوشع النقطةَ ذاتها بعد ستة أسابيع من مذبحة بيروت، قائلاً: «عندما يتحدثون عن الإبادة والتطهير، وعندما يَدْعون الفلسطينيين بالوحوش من ذوات القدمين، فلا عجب أن يدع جنديٌّ فظائعَ كهذه تحدث إلى جواره تماماً». كما كانت هذه النقطة قد أُثيرت من قبل بواسطة آخرين، ومن ضمنهم مجموعة من الحمائم الإسرائيليين الذين نشروا بياناً في حزيران تحت عنوان «الحياة والموت بين يدي اللغة». ويناقش هذا البيانُ عباراتٍ من نوع: «أعشاش الارهابيين» (مثل أعشاش الحشرات) و«تطهير» هذه الأعشاش (بما لهذهِ العبارة من ارتباطات دينية يفهمها كلُّ إسرائيلي) و«الإبادة» (كما للحشرات) و«الوحوش من ذوات القدمين» في إشارة إلى «الإرهابيين» الذين يسكنون تلك «الأعشاش». وهذه العبارات ابتُدِعت واستُعمِلت من أجل تجريد العدو الفلسطيني من إنسانيته وتبريرِ كلّ ما حلّ به. ومرّة أخرى نجد أنّ هذهِ الممارسات ليست بغير ما سابقةٍ في التاريخ اليهودي، ولكنْ مع تبادل الأدوار. وقد كان تأثير ذلك واضحاً في الأسابيع التي تبعت ذلك[3].

إنّ «الدعم العقائدي» الذي تحظى به إسرائيل في الولايات المتحدة، وما يرافقه من تزييف منهجي للسجلّ التاريخي ومن ممارساتٍ تشهِّر بالفلسطينيين وتتجاهل عذابهم، ليستحقّ حُكْماً مشابهاً. فلقد حُرِمَ الفلسطينيون إنسانيَّتَهم، وتُرِكوا طرائدَ سائبةً للفظاعات التي عانوها وسيستمرون في معاناتها. ليس ثمة أسهلُ من التنصُّل من المسؤولية، وشجبِ جرائم الآخرين (وهي جرائم حدثتْ فعلاً في الغالب). لقد كان من الممكن فعلُ الكثير لعرض صورة صادقة وعادلة لما حدث وما كان يحدث، وكان من الممكن تغييرُ سياسات الولايات المتحدة، وهي السياسات التي أدّتْ ـ كما كان متوقّعاً ـ إلى قيام إسرائيل الكبرى [أي الجبّارة المتغطرسة] التي تشكّل تهديداً لمواطنيها أنفسهم، وتهديداً لكلّ مَنْ يتعرّض لقوتها العسكرية، ولآخرين كُثُرٍ أيضاً. وهذا هو ما أدّى إلى أحداث عام ١٩٨٢ [الاجتياح وما تلاه]. وبمقدار إحجامنا عمّا يمكن فعلُهُ، فلن يكون أمامنا إلا أن نلوم أنفسنا على تبعات ذلك الإحجام. وإذا كانت تلك أموراً بديهية، وهي فعلاً كذلك، فإنّها جديرةٌ بأن نكرِّر الحديثَ عنها ما دامت تُتَجاهَلُ على الدوام.

---

١ ـ Haolam Haze, Aug 4, 1982.

* ـ ميهابليم: كلمة عبريةٌ، تعني «مُخَرِّبين». (المترجم)

٢ ـ Ibid.

٣ ـ A.B. Yehoshua, Op. Cit, Sep 22, 1982.